آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

مكتبة

معارج الجمال

تحليقات في سماوات الجمال الإسلامي

د. طارق بن طلال عنقاوي

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

معارج الجمال

تحليقات في سماوات الجمال الإسلامي

مكتبة
t.me/soramnqraa

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عنقاوي، طارق

معارج الجمال./ طارق عنقاوي - الرياض، ١٤٤٥هـ.

١٧٦ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٤-٠٧١٨-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

١٤٤٥/٢١٠٠٩

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٢١٠٠٩

ردمك: ٤-٠٧١٨-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

معارج الجمال

تحليقاتٌ في سماواتِ الجمالِ الإسلاميّ

مكتبة
t.me/soramnqraa

د. طارق بن طلال عنقاوي

الفهرس

مكتبة
t.me/soramnqraa

العنوان	الصفحة
مقدمة	١١
الرحلة الأولى: «الجمال في الإسلام»	١٥
منزلة الجمال في الإسلام	١٧
أهميَّة الجمال لهذا العصر	١٩
محاسن الجمال في الإسلام	٢٣
خاتمة الرحلة الأولىٰ	٢٧
الرحلة الثانية: «جمال التصورات الكُبرى في الوجود، سر الوجود وطبيعته»	٢٩
طبيعة الوجود الإنساني	٣١
الموجودات الأخرىٰ	٣٣
سبب الوجود	٣٤
جمال الخِلْقَة الإنسانية	٣٦
جمال الانسجام والتكامل مع الوجود	٣٨

جمال الغاية ٣٩
جمال النهاية ٤٠
جمال وجود المعيَّة ٤٢
الرحلة الثالثة: «جمال العلاقة بالله تعالى» ٤٣
أهمية العلاقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٤٥
جمال الفهم ٤٥
جمال المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٤٧
جمال التألُّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٥٠
جمال الاستعانة والدعاء ٥٣
جمال الرضا بالله عزَّ وجلَّ ٥٤
جمال الصبر علىٰ العبادة والشكر ٥٥
جمال الصلاة ٥٦
جمال الهداية ٥٧
جمال شرح الصدر ٥٧
جمال الولاية ٥٧
جمال التطلُّع للآخرة ٥٨
خاتمة في إصلاح العلاقة بالله تعالىٰ ٥٩
الرحلة الرابعة: «جماليات النبوة» ٦١
جمال الاتصال بين الرسولين ٦٤
جمال اتصالنا بالرسول ٦٥
جمال الوحي ٦٥
جمال الاطمئنان إلىٰ المرجعية ٦٧

جمال علاقتنا بالنبي ﷺ ٦٧
جمال اليقين بالنبوة ٦٨
جمال نبينا محمد ﷺ ٦٩
جمال المرافقة في الآخرة ٧٤
الرحلة الخامسة: «جماليات الأخلاق في الإسلام» ٧٥
جمال التأسيس الربَّاني ٧٧
جمال التفصيل ٧٩
جمال الشمول والتكامل ٨١
جمال اتزان الأخلاق ٨٢
جمال شمول ما تتعلَّق به الأخلاق ٨٤
جمال العمق ٨٦
جمال خطاب الأخلاق في الإسلام ٨٧
جمال التربية الخُلُقية في العبادات ٨٩
جمال المعيارية ٩٠
جمال نظام الأخلاق من منظور عُلْوي ٩٣
الرحلة السادسة: «جماليات التشريع» ٩٥
المحور الأول: جماليات المقاصد ٩٨
المحور الثاني: جمال الكليَّات ١٠٢
المحور الثالث: جماليات خصائص الشريعة ١٠٦
الرحلة السابعة: «جماليات رمضانية» ١٢١
جماليات تشريعات رمضان ١٢٩
بروز مقصد التشريع العام في عبادة الصيام ١٣٧

ارتباط الصيام بالضرورات الخمس ١٣٧
الرحلة الثامنة: «جمال تشريع المعاملات المالية» ١٣٩
المحطة الأولىٰ: الغايات والمقاصد ١٤٢
المحطة الثانية: الخصائص ١٤٥
المحور الأوَّل: خصائص الخطاب التشريعي ١٤٥
المحور الثاني: خصائص تشريع المعاملات المالية ١٥٧

مقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

بسم الله، والحمد لله ذي الجلال والإكرام، والصَّلاة والسَّلام علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ خير الأنام، أمَّا بعد:

لكلمة الجمال وَقْع جميل في النفوس؛ فقد فُطِرَتْ علىٰ حبِّه، وتعرَّف الله تعالىٰ عليها به، وزيَّن به خلقه، وجاء به شرعه، وجميل أن نتحدَّثَ عن الجمال عمومًا، وعن جمال الإسلام بالشمول الذي علَّمنا إيَّاه الإسلام.

أَسْمَيْتُ هذه الفصول: «**معارج الجمال**»؛ لأنَّ استشعار الجمال من بواعث الحُبِّ العُلْوِي، ومحفِّزات السَّعْي للرُّقِي، وقد شُوِّهَتْ حقيقة الجمال في هذا العصر واختُزِلَتْ كثيرًا، وحُبِسَتْ في صورٍ معيَّنة، فكان مِن الجدير بنا أن نستعيدَ شمول الجمال، ونُحلِّقَ في سماواتِه البهيجة، فهيِّئ -أخي القارئ- ذائقتك لرحلات إمتاع نرجو أنَّ أثرها لن يرحل عنك إن شاء الله.

نُحَلِّقُ في رحلتنا الأولىٰ مع «الجمال في الإسلام»، لنتحدَّثَ عن منزلته، وأهميَّته لعصرنا.

ثُمَّ نُحلِّقُ في رحلتنا الثانية مع «جمال التصوُّرات الكُبرىٰ في الإسلام»؛ مثل: التصوُّرات عن وجود الإنسان، والعوالم الأخرىٰ، وسبب الوجود، ونُدرك من ذلك جمال الفهم والغاية والمعيَّة والنهاية.

وأمَّا رحلتنا الثالثة؛ فنُحَلِّق فيها مع «جمال العلاقة بالله تعالىٰ»، لنُدْرِكَ أهميَّتها وأثرَهَا في فهم أنفسنا، ونعيشَ مع جمال المعرفة وجماليات الألوهية.

ثُمَّ نتحدَّث في رحلتنا الرابعة عن «جمال النبوَّة»، ونقف مع جمال العناية الإلهية بالبشر، وجمال الصلة بالله تعالىٰ من خلال النبوَّة، وجمال الوحي والاطمئنان بمرجعيَّته، وجمال علاقتنا بالنبي ﷺ وغير ذلك.

وفي الرحلة الخامسة نتحدَّث عن «جماليات الأخلاق في الإسلام» ومزاياها فيه، من ربَّانية المصدر، وفطرية التأسيس، ودور التفصيل، مرورًا بجمال الشمول والتكامل والتوازن والعمق، وغير ذلك من الخصائص.

ثم ينتقل حديثنا في رحلة سادسة إلىٰ «جماليات التشريع»، وفيه نعرض لجماليات المقاصد والكليَّات والخصائص، لننطلق من ذلك إلىٰ فضاء «جماليات رمضان» في رحلتنا السابعة، و «جمال تشريع المعاملات المالية» في رحلتنا الثامنة، ونرىٰ جمال النظرية وجمال التطبيق بطريقة جديدة مثرية.

وهذا العمل الذي أمامك -أخي القارئ- مرَّ بمراحل لم تكن لتُنْجَز لولا تيسيرُ الله تعالىٰ وفضلُه، فقد بدأت جذوره من الاهتمام بدراسةِ كمالِ الشريعة والدفاعِ عنه، ثُمَّ محاولةِ تقديم لقاءات إثرائية لطلاب فقه المعاملات بطريقة جديدة تظهر محاسن التشريع، من خلال سلسة: «تشريع المعاملات المالية في الإسلام - ملامح ومحاسن»، وبعدها كانت سلسلة: «جماليات منسية الصوتية» التي تناولتْ مواضيع متنوعة شكَّلَتْ جزءًا من مادة هذا الكتاب، ثُمَّ محاضرة: «جماليات رمضانية»، وكُلُّ ذلك صُبَّ في قالب هذا الكتاب.

ولا أنسىٰ هنا جهودَ التفريغ والتنسيق التطوعية المتعدِّدة، ثُمَّ جهودَ مراجعة

الصياغة اللغوية التطوعيَّة أيضًا؛ فأسأل الله تعالىٰ أن يجزي كلَّ مَن ساهم في هذا العمل قبل طبعه، ومن سيساهم في نشره بعدها أعظم الجزاء، وأنْ يفيض علينا جميعًا من عطائه وهباته، إنَّه أكرم مَن سُئِل، وأجود مَن أعطىٰ.

الرحلة الأولى

«الجمال في الإسلام»

منزلة الجمال في الإسلام:

إذا تصفَّحْتَ نصوصَ الوحيين، واستقرَأتَ هذه الشريعة، ونهلتَ مِن مَعِينها؛ فستجد أنَّ من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**الجميل**»، وجاء في الحديث: (إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)[1]، وكفىٰ مزيَّةً ومنزلةً للجمال أنَّ الله تعالىٰ تعرَّف إلينا به، وأخبرنا أنَّه من محبوباته، وجعله باعثًا وحاديًا لنا إليه تبارك وتعالىٰ.

وأينما اتَّجهنا بأبصارنا وأسماعنا نجدُ الجمال؛ فقد بثَّه تعالىٰ في خلْقه، فزيَّن السماء وامتنَّ علينا بتزيينها فقال: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦]، ولـمَّا ذكر سبحانه الحدائق؛ قال: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠]، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ التزيين وبَعْث البهجة في النفس بالجمال مقصود، وهو مع إمتاعنا يثير فينا التفكُّر لنتعرف عليه من خَلْقه.

وكذلك الأمر في التعرُّف علىٰ الله تعالىٰ من خَبَره؛ فقد وصف الله تعالىٰ أسماءه بالحسنىٰ، فهي حسنة في السمع، تدلُّ علىٰ صفات جميلة الوقع في النفوس، وآثارها جميلة نشهدها في خلقه وشرعه.

والقرآن الذي أوحاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليعرِّفنا به وبما يريده منَّا؛ جميل في معناه ومبناه، جميل في مضامينه وفي صيغه وأساليبه، بل جاء الدِّين كلُّه جميلًا، وعبَّر النبي ﷺ عن ذلك بتعبير: (حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ)[2]؛ إذ له حلاوة يجدها الإنسان في نفسه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١)، (كتاب الإيمان - باب تحريم الكِبْر وبيانه).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)، (كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٨) برقم: (٤٣)، (كتاب الإيمان - باب بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان).

وقد أدرك هرقل هذا المعنىٰ عندما سأل أبا سفيان: (هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ)؛ فأجابه: أنْ لا، فعلَّق هرقل وقال: (وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ)[1].

إذًا تذوُّق الجمال أمرٌ مهمٌّ جدًّا، رقَّاه الله بالإسلام في نفس الإنسان، ونشره في كل شيء ممَّا نُشاهد ونسمع، وفيما نقرأ من كلامه، وفيما خاطبنا به من تشريعاته.

وإذا تفكَّرْنا في فطرة الإنسان وفي غاية خلقه نجد أنَّ الجمال له مُهمَّة وغاية أكبر من مسألة الإمتاع؛ فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فطر النفوس علىٰ حُبِّ الجمال، ثُمَّ عرَّف عباده علىٰ نفسه بالجمال، حتىٰ ينقاد العبدُ ويسير إليه بحُبٍّ وشوق.

وتأمَّلِ الصلاة التي هي صلة بين العبد وربِّه، كيف تبدأ بالفاتحة وفيها الحمد لله سبحانه، والحمدُ هو الثناء علىٰ الله تعالىٰ بكماله وجماله، فالعنوان والبوابة التي ندخل منها هي الجمال، وقد أُمِرْنَا أن ندخل فيها في جمال، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

وقد عبَّر النبي ﷺ عن الصلاة بأنها: قُرَّةُ عينه[2]؛ وذلك لجمال الصلة فيها بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعندما يقرأ العبد الفاتحة فيحمد الله، يقول تعالىٰ: (حَمِدَنِي عَبْدِي)، ثُمَّ إذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، قال الله: (أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي)، ثُمَّ إذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، قال الله: (مَجَّدَنِي عَبْدِي)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٨) برقم: (٧)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، (١/ ١٩) برقم: (٥١)، (كتاب الإيمان - باب)، ومسلم في صحيحه (٥/ ١٦٤) برقم: (١٧٧٣)، (كتاب الجهاد والسير - باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام).

(٢) انظر: سنن النسائي (٦/ ٤٣٩) برقم: (٣٩٧٤)، (كتاب عشرة النِّسَاء - باب حُبِّ النِّسَاء)، ولفظه: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٩) برقم: (٣٩٥)، (كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها).

بل بلغت منزلة الجمال في الإسلام أن يُؤمرَ العبد بتجميل ما يشقُّ علىٰ النفس كالصبر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المعارج:٥].

أهميَّة الجمال لهذا العصر:

أصبحت الحاجة ماسَّة للتعريف بالجمال والتذكير به في عصرنا؛ وذلك من جهات عدَّة:

الأولىٰ: التأثير الكبير للجمال في الدعوة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولفت الناس إلىٰ حقيقة هذا الدِّين؛ خاصَّةً مع تعرُّضه للتشويه وللهجمات.

إنَّ التركيز علىٰ موضوع الجمال وإبرازه في تشريعات الإسلام، وفي طبيعة العلاقة فيه مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي تصوُّر الإسلام لهذه الدنيا والوجود فيها، ومصير الإنسان وهدفه؛ يبطل تلك التشويهات تلقائيًّا؛ لأنَّ الإنسان إذا شهد الجمال وتذوَّقه بنفسه؛ عرف الحقيقة، فلم يلتفت إلىٰ ما يُطرح مَن الأكاذيب والمبالغات والربط الخاطئ بين الأمور، وغير ذلك ممَّا يُستعمل في تشويه الحق.

وللجمال فعل عجيب في تقريب الحق إلىٰ النُّفوس من جهة صيغة تقديم الحق، ومن جهة المضمون، فالحقُّ في ذاته جميل، تستحسنه النُّفوس وتميل إليه إذا تجرَّدتْ من أهوائها، والعقل الإنساني لا ينفصل تمامًا عن الشعور، فالإنسان مُركَّبٌ من عدة جوانب، تمتزج فيه المعارف بالمشاعر، ولا يمكن أن نعدَّه مجرد آلة تستجلب المعلومات بشكل سلبي، ثُمَّ تُخرجها بعد عمليات حسابية مجرَّدة.

فالجمال له أثر ومزيَّة وارتباط وثيق بالحق، فتجويد الخطاب الذي يدعو إلىٰ الله سبحانه ويستدل لصحة الإسلام باللمسات الجمالية، وإبراز الجمال في مضامينه ومعانيه وصياغاته، من أعظم ما نحتاج إليه اليوم.

الثاني: الجمال الذي يكون في المعنىٰ لا بُدَّ أن يعود إلىٰ الواجهة، فهو أعظمُ وأوسعُ وأحمَدُ عاقبة؛ بل إنَّ الجمال الذي يكون في الصور الظاهرة متَّصل بجمال المعنىٰ، حيث يُعجبُنا تناسق الأشياء، ويُشعرنا بجمالها توازن أشكالها وألوانها، وشمولها، وتكامل أجزائها، وهذه المرتكزات الجمالية موجودة بشكل أبلغ في تشريع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصيغ الوحي التي تحمل مضامينه، لا سيَّما القرآن الذي يبلغ فيه الجمال البياني مبلغ الإعجاز.

فما أعظم أن يعود النَّاس إلىٰ اكتشاف هذا الجمال في التشريعات والأخلاق والقيم والمبادئ، في صيغها ومعانيها والتناسق بينها، والموازنات التي لا تكون إلا بتشريع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حيث ينزِع البشر يَمْنةً ويَسْرَةً وتضعفُ عندهم خصلة التوازن، أمَّا في التشريع فكل شيء موزون، وهذا ممَّا سنفيضُ فيه لاحقًا إن شاء الله.

الثالث: إنقاذ البشرية من تشويه الجمال؛ إذ نُلاحظ اعتداءً مستمرًّا علىٰ الجمال، وخلطًا له مع القُبح، بل صار القبيح يُقدَّمُ علىٰ أنَّه جميل، وكأنَّ النَّفس البشرية ليس فيها فطرةُ إدراك الجمال.

نعم قد يتفاوت الجمال في نظر النَّاس في بعض الصور والتفاصيل، ولكنَّ أصل الجمال ذوقٌ فطري موجود في النَّفس، وما يحصلُ في عصرنا من قَلْبِ معايير الجمال، وجعل الأمور المستنكرة جميلة هو أمر فظيع، مثل: اعتبار الملابس المقطَّعة جميلة، وهذه ليست مجرَّد مسألة ذوقية تتعلَّقُ بالظاهر كما يظنُّ بعض النَّاس، بل هي قَلْبٌ لمعاييرَ موجودةٍ في النُّفوس؛ لتستسيغ القبيح وتُعاملَه معاملة الجميل، وهذا خطير جدًّا؛ لأنَّ هذا مدخل لوصول الانحراف إلىٰ ما وراء ذلك.

وهنا يبرز دور الإسلام، الذي اعتنىٰ بمعيارية الجمال، وربْطِه بالفطرة حتىٰ

يكون ثابتَ الأصل؛ وهذا لا يُوجد إلا في الإسلام، وأحوج ما يكون النَّاس إليه في هذا العصر.

يُعلِّمنا الإسلام أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان في أحسن تقويم، فالجمال يكمن في الخِلقة الأصلية التي خُلِقَ الإنسانُ عليها، ولذلك جاءت كثيرٌ من التشريعات تَنْهَىٰ عن تغيير خلق الله سبحانه؛ لتُحافظَ علىٰ جمال الصورة الفطرية، صبغة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي صبغ الناس عليها.

إنَّ الانحراف إذا دبَّ في جمال الصورة، وبدأ الإنسان يُغيِّرُ في خلق الله سبحانه باسم الجمال؛ صار الأمر في باطنه إلىٰ قَلْب الحقائق وتشويه الفِطَر، ولا يلبث ذلك حتىٰ يصل إلىٰ المعاني، فيبدأ التحريف بالتغلغل للداخل.

إذا فقدت النَّفس البشرية قُدرتها علىٰ تمييز المعايير الصحيحة، وعلىٰ الثقة بأنَّ الإنسان عنده أساس داخلي للذوق الصحيح، وإدراكٌ قطعيٌّ ويقينيٌّ لكُبريات المسائل وأصول العقليات وأصول الجمال وأصول الحُسْن والقُبح؛ فإنَّ تفكيك المعيارية والخلْخَلة في الفطرة لن يتوقف عند مجرد جمال الصور، بل سيصل إلىٰ جمال المعاني؛ لتنحرف الفطرة حتىٰ في العقائد، وفي إدراك الأمور علىٰ حقيقتها، وتصير البشرية إلىٰ العدمية في المعايير كما نشاهد اليوم.

ولعلَّ هذا -والله أعلم- سِرُّ تشديد الشريعة في مسألة تغيير خلق الله سبحانه، ويستنكر بعض النَّاس هذا التشديد بحُجَّة تعلُّقِه بأمور ظاهرية كما يظن، وهو لم يُدرك عُمق القضية، فيُحاكمها إلىٰ تفكيره السطحي وعدم إدراكه لعمق الأمور، وهذه مشكلة كبيرة جدًّا، تبدأ بأن يطغىٰ الإنسان بنفسه، ويظنُّ أنه بتجاربه البسيطة وخبراته القليلة -مع تعرَّضه لسيل مِن تشويه الحقائق فيما يدخلُ عليه من الإعلام وغيره-

يستطيع أن يُحاكِم أصلَ الخِلْقة وأصلَ المعاييرِ التي وضعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الإنسان، سواء كانت عقليَّة أم ذوقيَّة أم شعوريَّة، فموضوع الجمال ليس سهلًا في الحقيقة، بل إنَّ له أهميةً كبيرةً جدًّا.

الرابع: حبس الجمال في الصور، ولهذه المشكلة صلة بما ذكرناه من أهمية الجمال المعنوي، فتلك الأهمية تضيع باختزال الجمال في الصور، وتضيع أيضًا من جهة قصر فائدة الجمال علىٰ الاستمتاع بظاهر الصورة.

إنَّ تلك الصور الجميلة التي نراها في خلق السماوات والأرض، وفي الحيوانات والحدائق والأشجار والبحار، تدلُّ علىٰ جمالٍ آخر غير مجرَّدِ الاستمتاع بصورها، فهي تدلُّ علىٰ جمال مَن خَلَقَها، وجمال فِعْلِه ولُطْفه ورحمته، وغير ذلك من أسمائه وصفاته الجميلة.

وإذا حبست النَّفس عن التفكُّر في أبعاد هذا الجمال الظاهر ضعف تذوُّقها للجمال وإدراكها لحقيقته، فهذا التفكُّر هو بوَّابة لتذوق الجمال العميق الواسع، وتحقيق غاياته التي جعله الله سبحانه وسيلة لها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

ولـمَّا كان جمال الخلْق آسرًا للقلوب، باعثًا للسرور في النفوس، فقد جعله الله تعالىٰ محرِّكًا للقوىٰ العقلية والذهنية؛ ليتحقق بذلك تكامل التأمُّل والنظر البصري والعقلي الموصل إلىٰ الحقيقة، والمحقِّق للغاية، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٦-٨].

محاسن الجمال في الإسلام:

ما الذي يُقدِّمه الإسلام لمعتنقه في مجال الجمال؟ تتجلَّىٰ محاسن الجمال في الإسلام من جوانب عدَّة:

الجانب الأول: شمول الجمال

فهو يتناول جمال الخَلق، ويتناول جمال الخالق سبحانه، وجمال الغيب، وجمال الصور والمحسوسات، وجمال المعاني، بل يشمل الجمالُ طريقَ التقرير والاستدلال تمثيلًا وشرحًا وبيانًا، وجمالاً عند قراءة واستماع ألفاظ القرآن في معانيه وصياغاته، وحتىٰ في وقعه الصوتي المتناسق الفريد.

عرَّفنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجمال في خلقه بالحواس لنستدلَّ به علىٰ جماله، وعرَّفنا بجماله بالخبر عن أسمائه وصفاته وأفعاله، وأرانا في كتابه كيف يُحِقُّ الحق بكلماته، وكيف يرحم عباده بالتشريعات وبالأقدار التي تسوقُ الإنسان بلُطف إلىٰ ما هو خيرٌ له من حيث لا يعلم، هذا كلُّه من شمول الجمال في هذا الدين العظيم.

بل يأخذنا القرآن في تحليقات الجمال إلىٰ أنفسنا! حيث يقول جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، ويُنبِّهنا القرآن إلىٰ خاصيَّةٍ تُعطينا جمالًا عجيبًا، وتلك الخاصيَّة هي: غاية الخلق، وهي الأمانة التي اختُصِصنا بها عن السماوات والأرض والجبال، فالإنسان ليس عبدًا لله اضطرارًا فقط، بل يعبدُه اختيارًا؛ لأنَّه أُعطي الإرادة التي يستطيع بها ذلك، فإذا قصد إلىٰ طريق الله سبحانه؛ كان جميلًا في اختياره، وتكون عبوديَّته حُبًّا ورغبةً وشوقًا وتطلُّعًا، وفي ذلك ما فيه من معاني الجمال التي تُذاقُ ويصعب وصفها بالعبارات.

إذًا يجتمع في الإنسان نفسِه جمال المعنىٰ وجمال المبنىٰ، وهذا عندما يُدركُ أنَّه خُلِقَ لعبادة الله سبحانه، وأنَّ الذي خلقه هو الجميل ﷻ، فيشعرُ بهذا الاصطفاء

في حُسن هذه الخِلْقة؛ فتنبعث نفسُه لعبودية الجميل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شُكرًا له وتعظيمًا.

وقد بلغ شمول الجمال في الإسلام إلىٰ طلب حصوله حتىٰ في مقامات قد يُظنُّ أنَّها تتنافر معه، فها هو القرآن يأمر عند مفارقة الزوجة بالسراح الجميل، بل يأمر بمقابلة المشركين المكذِّبين بالصفح الجميل، والهجر الجميل، والصبر الجميل، إلىٰ هذا الحدِّ وصل شمول الجمال، فهو مكتوب علىٰ المسلم حتىٰ في لحظات كهذه، فليس من شأن المسلم أن يفقد هذه الخاصية الجميلة من هذا الدين الجميل.

الجانب الثاني: جمال العبودية ومنازلها

من محاسن الجمال في الإسلام أنَّه يشمل جمال العبودية وجمال منازلها، انظر كيف يصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَن يتصف بهذه العبودية في القرآن: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]، تأمَّل جمال وصفِ الله تعالىٰ لهم الذي يشعرك بأنَّ الله سبحانه يصفهم بحب، وينتقي أجمل العبارات في التعبير عن حالهم، ويصفهم بأكرم الأخلاق.

وهذا كثير جدًّا في القرآن، إذ يصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جمال نفوس عباده وجمال أحوالهم وصفاتهم بطريقة جميلة، فالنُّفوس جميلة، والأفعال والصفات جميلة، وطريقهم إلىٰ الله جميل، ناهيك عن جمال الغاية التي سينتهون إليها في الدنيا، وفي الجنَّة، فالعاقبة الحسنة للمتقين.

وجمال العبودية في الإسلام يشمل جانبًا آخرَ أعظمَ، وهو ما يكون من الله تعالىٰ لعباده من الأفعال، فانظر -مثلًا- في فرح الله تعالىٰ بتوبة العبد، ما أجمل التشبيه النبوي حين أخبر ﷺ أنَّ الله تعالىٰ أشد فرحًا بتوبة العبد من رجلٍ كان في فلاةٍ (صحراء) من الأرض، ومعه ناقة عليها طعامُه وشرابُه، فجلس تحت ظلِّ شجرة ليستريح، فغلبه النوم؛ فذهبتْ تلك الناقة، وذهب معها مالُه؛ فأيقن بالهلاك، فغفل مرة أخرىٰ، فإذا بتلك الناقة

فوق رأسه، فقال: (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)[1].

ولذلك يكون في لحظة التوبة من الفيض الرحماني شعور بدخول الرحمة في قلب الإنسان لا يكادُ يُوصف، وإن أردتُّم أن تُقرِّبوا هذا المعنىٰ لنفوسكم فشاهدوا مقاطع دخول المسلمين الجُدد في الإسلام، تجد في منظره وتصرفاته ما يشعر بهذا الفيض، وبعضهم يُشبِّهها بدُش من الرحمة نزل عليه، ويحصل مثل هذا مع صدق التوبة أيضًا.

وفي التوبة نفسها يكون جمال الرحمة والمغفرة، فالإنسان يُسيء ويُخطئ، ومع ذلك يكون هذا سببًا في فرح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا تاب، فيغفر له ويرحمه، ويشرِّع له كثيرًا من الأشياء التي تُكفَّر بها سيئاتُه، وإذا فعل الحسنات لم يُحاسبْه عليها بمثلها، بل يُضاعفْها له أضعافًا كثيرة.

فالجمال حاضر بصورة تأسر القلب حتىٰ عندما يزِلُّ العبد، فهو إذا أخطأ وتاب يكونُ جميلًا في الإسلام، ولا يبقىٰ هذا الذنب يكسوه بالقبح طِيلة حياته؛ فأيُّ جمال أبلغ من هذا الجمال؟!

الجانب الثالث: غايات الجمال في الإسلام

قال تعالىٰ: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩]، فجعلَكَ تنظر إلىٰ الثمار ليس فقط مِن جهة نفعها لك من التغذية فحسب؛ وإنَّما لجمالها وما تبعثه في النَّفس مِن البهجة، وجعل ذلك آيةً عليه ﷻ.

إذًا فقد أوجد الله سبحانه الجمال لغاية وحكمة، وهي التعريف بالله سبحانه، كما أنَّ هذا الجمال يُؤدِّي وظيفة؛ فهو مسخَّر لنفع الخلق، فيهتدي الإنسان لما ينفعه من الأطعمة -مثلًا- بالجمال، وتنجذب الحيوانات إلىٰ بعضها بالجمال.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٣) برقم: (٢٧٤٧)، (كتاب التوبة - باب في الحض على التوبة والفرح بها).

ومن وظائف الجمال أنَّه يُحبِّبُ العبادة للعبد، كما قال النبي ﷺ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)[1]، وصورة العبد وهو يغلب هواه، ويُجاهد نفسه ليُعظِّم اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويشكره علىٰ نعمة خلْقِه، هي صورة جميلة، وإخلاص هذا الشكر أعلىٰ درجات العدل، وضده من الشرك والكُفر هو أعظم درجات الظلم.

وما أروع ما نشهده من الجمال عندما يتوجَّه العبد إلىٰ ربه سبحانه مغالبًا كل ما يتجاذبه من الشهوات، متحدِّيًا كل ما يحيط به من الفتن، مجتازًا كل ما يُعيقُه من الصَّوَارِف، متوجِّهًا إلىٰ ربِّه خاضعًا خاشعًا مُتذَلِّلًا راجيًا رحمته وعفوه وعونه، وبهذا تجمُل نفسُه وتشرُف إذ تتطلَّعُ إلىٰ معالي الأمور، وتتخلَّق بالوفاء نحو مَن أحسن إليها أعظمَ الإحسان، أليس هذا من أعظم الجمال وأعلاه منزلةً؟!

فالعرفان والوفاء معانٍ جميلة تستحسنها النُّفوس، وأعلىٰ صورِها هي هذه الصورة، التي تكونُ في عبودية العبد لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع ما في هذه العلاقة من كرم وعطاء ورحمة وعفو الربِّ الودود الرحيم سبحانه، وما يَمُدُّ به عبده من العون والتوفيق والهداية لكل ما يُقَرِّبُه إليه، وإلىٰ طاعته ممَّا يحبه سبحانه ويرضاه من القول والعمل.

فأيُّ حُبٍّ في هذه العلاقة؟ وأيُّ جمال في هذا الحب؟ وقد قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤]، ولو لم يكن للخلْق غاية إلا هذه لكفىٰ بها غايةً وجمالًا.

وعندما نشهدُ هذا الجمال في علاقة العبد بربِّه، تُفتح لنا نافذةُ تأمُّلٍ في جواب السؤال عن الحكمة مِن خَلْقِ الله للإنسان وتكليفه بالعبادة، فخلقُ الله سبحانه يُؤدِّي إلىٰ جمالٍ يتجلَّىٰ في هذه العبوديَّة، ويستمرُّ في الآخرة، حيث يُلهم أهل

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص١٠).

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجنَّة التسبيح، ويكون من ألذِّ الأشياء إلىٰ نفوسهم؛ اتِّصالهم بالمولىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورؤيته، وسماع كلامه، وهو أعظم الجزاء الذي يكونُ للمؤمنين.

ومن الأشياء التي تُبرز الجمال في العبادة: انعكاسُها علىٰ الإنسان بالجمال، فتجعله إنسانًا خَيِّرًا، مُحسنًا، مُصلحًا في الأرض، أخلاقُه ترتفع، ونفسُه تزكو وتتهذَّب، ويترفَّع عن دنايا الأمور، وترتفع همَّته إلىٰ معاليها، هذا يُكسب الإنسان أعظم صور الجمال في سلوكه وأخلاقه، فيكون قدوة للنَّاس، وكثيرٌ من الذين دخلوا في الإسلام تأثَّرُوا بجمال انعكاس الإسلام في سلوك الصحابة، الذين كانوا فرسانًا بالنَّهار، رُهبانًا بالليل، فشاهدوا عباداتِهم، واتِّصالَهم بربِّهم، فتاقتْ نفوسُهم إلىٰ أن ينالوا مثل هذا في أنفسهم، ويستشعروا هذا الجمال مع ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

خاتمة الرحلة الأولى:

أقول: ما أجمل أن تكون مسلمًا! تتناغم مع جمال هذا الوجود، فتكونَ جميلاً في معناك، وفي شعورك، وفي تفكيرك، وفي غاياتك، فتتصل بإسلامك بمصدر هذا الجمال، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتزكو وتسمو، وينعكس الجمال علىٰ سلوكك، وتفيضُ به علىٰ الآخرين.

ما أجمل أن تكون مسلمًا! لأنَّ الإسلام جميلٌ بعقيدة فيها أجمل التصوُّرات عن الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأكملها، وأعلاها.

جميلٌ بشريعة هي أشملُ الشرائع، وأكثرُها صلاحًا للإنسان، واتزانًا وموازنةً بين الأمور.

جميلٌ بقيمه، فهو أكثر الأديان عنايةً بالقيم والأخلاق والمبادئ والتصوُّرات، وغرسًا لها في النفوس.

جميلٌ من أساسه، وهو التوحيد: «لا إله إلا الله»، فهي كلمةٌ تنبع مِن القلب، فيها ذوق للجمال؛ لأنَّكَ عندما تصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالألوهية، فأنتَ تُعبِّرُ عن حُبِّكَ له، وهذا الحب ينبعث بالجمال.

كلمة الإله في الحقيقة تفيض من الإنسان حُبًّا، فعندما يقول: «لا إله إلا الله)، ينفي العبودية عمَّن سوىٰ الله؛ لأنَّها أعظم الظلم، ويُثبتُها لله ﷻ وحدَه؛ لأنَّه يستحقُّها لكماله وجماله وعظمته وإحسانه سبحانه، فتجد هذه الكلمة تنبعث نحو جمال الله عزَّ وجلَّ، وتبعث النفس إليها، بل قيل: إنَّ «الإله» مشتق من مادة: «أَلَهَ» في اللغة، ويقال: أَلَهَ الفصيل -وهو صغير الناقة- إذا ناح شوقًا لأُمِّه، فهي كلمةٌ تُعبِّرُ عن شوق وحُبٍّ مع إجلال وتعظيم، وانبعاث للنَّفس نحو مولاها وخالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرحلة الثانية

«جمال التصورات الكُبرى
في الوجود، سر الوجود وطبيعته»

عندما ينظر الإنسان بعقله الفطري يجد أنَّ الوجود لا يكون مفهومًا إلا إذا عُرف سببه وسرُّه وما يقوم به، وإذا غابت هذه المعرفة واختُزل الوجود في المادة التي نشهد وجودها بالحواس؛ فستغيب كثيرٌ من التصوُّرات المهمة، فلا خالق ولا غيب، ولا يوجد في حياة المادة هذه شيء أعلىٰ من عالم المحدودية والنقص والنسبيات، وهنا تبرز ضرورة البقاء علىٰ الفطرة وتأكيدها وتكميلها، فهذا يحفظ شمول رؤيتنا للوجود.

وشمول الرؤية للوجود لا يقتصر علىٰ إدراكك عالم الغيب والشهادة الخارج عنك فحسب، بل يشمل إدراك طبيعتك الإنسانية، فوجودك ليس مجرد وجود جسدي، بل هناك روح، ووجودك ليس وجودًا انفراديًّا، بل هناك عوالم أخرىٰ تتكامل معها، فهذا يعمِّق لك هذا الشمول.

طبيعة الوجود الإنساني:

يعي الإنسان ذاته وما يُلمُّ به وما يصدرُ عنها، ويعي غيره من الموجودات، فإذا أكل شيئًا حلوًا -مثلًا- صار عنده وعي بطعمه، وهذا الوعي فيه شيء عجيب؛ لأنَّه يرتبط بخلايا الدماغ العصبية كما تُظهرُه الاختبارات الكهربائية والمغناطيسية في تجارب اقتران الوعي بالنشاطات الدماغية، لكن لا يمكن أن يُفهم الوعي هكذا بسهولة! أو بالأصح لا يمكن أن يُختَزَلَ الوعي في هذا الجانب.

تأمَّل في حالك وأنت ترىٰ مشهدًا معيَّنًا بما فيه من صور، وتسمع ما فيه من أصوات، وقد تشمُّ مع ذلك رائحة مرتبطة بذلك المشهد، فهذه المدخلات متعددة،

والأماكن التي يتم تفعليها في الدماغ مع إدراك هذه المدخلات أيضًا متعددة، فهي ترجع في الحقيقة إلىٰ أجزاء تشريحية دقيقة، بأعداد كبيرة جدًّا، خاصة إذا جزَّأناها إلىٰ خلايا.

فإذا عزونا الإدراك إلىٰ الجانب التشريحي الموجود في الدماغ، الذي يرجع إلىٰ خلايا دماغية كثيرة متناثرة؛ فكيف يُدرك الإنسان الأمور بشكل مُوَحَّدٍ؟ إذا كان الشمُّ يذهب إلىٰ جهة، وأجزاء البصر أيضًا تذهب إلىٰ جهة أخرىٰ، والشعور -مثلاً- بموقع الإنسان وتوازنه يتعلق بجهة ثالثة؛ فكيف يعي الإنسانُ صورةً مُوَحَّدةً لهذا الواقع؟ ما هو الجزء المركزي الذي تتوحَّدُ فيه هذه الصورة؟

الجواب الغريب في الحقيقة أنَّ ذلك الجزء المركزي غير موجود، فلا يوجد في دماغ الإنسان، ولا في أي مكان آخر من جسده شيءٌ يمكن أن نقصده بالحواس يتمثَّل فيه هذا الإدراك الموحَّد!

هذا يقودنا ولا بُدَّ إلىٰ أنَّ هناك شيئًا غير ماديٍّ؛ هو الذي يدرك في حقيقة الأمر، وإن وقع إدراكه بواسطة تلك الحواس والأجزاء الدماغية المتناثرة، وهو شيءٌ يُعبِّر عن ذاتية الإنسان، وهو الذي يجعلني أقول: هذا فلان، أو فلان، لا سيَّما أنَّ خلايا الإنسان تتجَدَّد وتتغيَّر، فخلاياك الآن وأنت تقرأ هذه السطور ليست هي خلاياك قبل سنة أو سنتين، فكل شيء في جسمك يتجدَّد ويتغيَّر، وهناك عمليات هدم وبناء مستمرة، فذاتك هذه تتميَّز من الحقيقة بالروح، ووعيك يُفهم بالروح، فالموجودات الماديَّة يمكن أن تتمثَّل فيها المعلومات بشكل مكتوب، أو علىٰ شكل سيل من الشفرات البرمجيَّة، لكن لا يمكن أن تتمثَّل بوعي فيه إدراك مُوحَّد للأشياء إلا في حي له روح.

فمن جمال التصور الصحيح لنفسك ولواقعك وعلاقتك بالأشياء؛ أنْ تُدرك أنَّ هناك روحًا في داخلك، وهذا الإدراك وإن أمكن أن يحصل بالعقل كما أثبتنا في الجمل السابقة، إلا أنَّه يزداد بيانًا وتفصيلًا ودقةً إذا أخذنا بالمصدر الآخر للمعرفة؛ وهو: الخبر، فمنه تعرف علاقة الروح بالجسد، وما يحصل بعد الموت لهذه الروح، ومنه تعلم أيضًا لِمَ تُوصف بأنَّها طيِّبة أو خبيثة، وأنَّها تزكو وتتطلَّع إلىٰ الأعلىٰ لمصدر هذا الوجود، وأنَّ شفاءها ومتعتها وراحتها ليس في عالم المادة المحضة الخالي من المعاني السامية.

الموجودات الأخرى:

يستطيع الإنسان أن يدرس العلاقات بين كثير من الأشياء في صورة قوانين سببيَّة تُمثِّل جانبها الماديَّ، لكن ذلك لا يتناول كل صُوَرِ العلاقات بين الأشياء؛ فكيف تتكامل هذه الأشياء؟ وما سِرُّ النظام الذي فيها؟ وما الغايات التي تُبديها هذه الأشياء؟ كل هذا لا يمكن أن يُفهم بمجرد الملاحظة الحسِّيَّة، بل لا بُدَّ من الرجوع إلىٰ معان مجرَّدة عن هذا الواقع التجزيئي الماديِّ؛ لتُفْهَمَ هذه الأشياء، ويُدْرَكَ التكامل الذي فيها، ويُدْرِكَ الإنسانُ الغاياتِ، ويرتقي لمستوىٰ أعلىٰ من الفهم عن مجرد الرَّصْدِ والتمثيل الرياضي للمشاهدات.

والتصوُّر الصحيح الذي يُعزِّزُه الإسلام ويُفصِّلُه يُعطينا الشمول والوضوح في الرؤية، فلا تحتاج أن تدخل في صراعٍ لفهم هذا الوجود بين مَن يرىٰ أنَّه مجرَّد مادة، أو مَن يُجرِّده من ماديَّته، وبين مَن يرىٰ أنَّه يسير علىٰ قوانين جامدة وبين مَن يرىٰ أنَّه يسير بتسخير إلهي لا يوجد معه أي سببيَّة أو انتظام وَفْقَ قوانين، بل سترىٰ الانسجام والتكامل بين هذه الجوانب، وترىٰ أنَّ الذي وضع هذه القوانين وسخَّرَها

وأحكمها وضَمِنَ استمرارها هو الذي خلق هذا الوجود، وهو مصدر الكمال والقوة والعلم، بينما تجد فيما تُشاهده من المخلوقات النقص والاحتياج، فتُصبح الصورة عندك مكتملة ومنسجمة، بينما تجد -مثلًا- في النَّصرانيَّة المحرَّفة، أو بعض المذاهب الباطلة الأخرىٰ أنَّ تصوُّرَ ما يُؤثِّر في الوجود، وتصوُّرَ العلاقات بين تلك المؤثرات مشوش، وينزع إلىٰ خرافاتٍ، وأوهام، وأشياء لا يتقبَّلها العقل. فعقلانية الوجود مع وضوحه وبرهنته تظهر في الإسلام.

سبب الوجود:

بعد أن بدأنا بأنفسنا وما نُشاهد، وتعمَّقنا فيه، لنرجع إلىٰ ما هو أعظم، إلىٰ الباطن والظاهر سبحانه، سببِ الوجود.

هنا تجد أنَّ وجودَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ظلِّ الرؤية الصحيحة وجود مبرهَن مرتبط بأصول عقلية، فمن خلال ما فُطِرْتَ عليه، وما تجده ضروريًّا في نفسك من أنَّ الشيء المُحدَث لا بُدَّ له مِن سبب؛ تجد أنَّ هذا السبب أيضًا لا بُدَّ أن يكون شيئًا مختلفًا عن هذا الوجود المُحدَث، وإلا كان هذا السبب مثلُه مثل المُحدَث، ولم يكن في حقيقته سببًا مستغنيًا، بل سيكون شيئًا مفتقرًا، فتجد أنَّ الحجَّة البرهانية القوية في القرآن تأتيك بقوتها في ذاتها، وتأتيك أيضًا بجمالها في صياغتها: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥]، وتعطيك الصورة كاملة، فهذا الوجود الذي تَشْهَدُهُ وتعرِفُه لم يأتِ من غير شيءٍ، فهذا يستحيل عقلًا.

وأيضًا؛ لا يمكن أن يكون مصدره هو أنفسَنا، أو الأشياء التي نشهدها، والتي هي محتاجة وناقصة في نفسها، فلا بُدَّ للعقل أن يصل إلىٰ أنَّ هناك سببًا للوجود يَتَّصِفُ بالكمال والاستغناء التام، ويختلفُ عن كل هذه الموجودات.

وإذا قرأتَ صفة الله ﷻ في الإسلام، تجد أنَّها متوافقة تمامًا مع هذا التصوُّر العقلي الواضح، أمَّا إذا نظرتَ إلىٰ الأديان المحرَّفة أو الدِّيانات الأرضية، فستجد أنَّ هذه الرؤية مشَوَّشة؛ لأنَّ الأشياء التي يُنسَبُ لها الإيجاد والربوبية والتصرُّف هي ذاتها محل نقص.

اقرأ سورة الإخلاص، كيف يصِفُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]، تجد القضية واضحة، وإذا جمعتَ آية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، إلىٰ سورة الإخلاص، تجد الصورة في غاية الجمال والوضوح.

فأنتَ إذا تدبَّرْتَ سورة الإخلاص، تجد أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عرَّف نفسه بأنه: «الأحد»، فلا يوجد شيء يُشبهه، ولا يوجد شيء مثلُه، هو متفرِّدٌ في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، وهذا ما يدلُّك عليه العقل إذا نظرتَ إلىٰ هذا الوجود وما حوىٰ من كمال، فهو دالٌّ علىٰ خالق يتَّصِفُ بالكمال المطلق الذي لا يُحدُّ ولا يشوبه نقص، وهذه صفة الصمد سبحانه.

قال بعض المفسرين في معنىٰ الصمد: (السيد الذي قد كَمُل سُؤدده)[1]. فانظر إلىٰ هذا الاتساق والوضوح في الرؤية، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، فهو غنيٌّ بنفسه، لا يحتاج إلىٰ غيره، وإلا بطَلَ كل الوجود، فلا يمكن أن يكون قد وُلد، ولا يمكن أن يكون له ولد؛ لأنَّ ذلك شأن الناقص المفتقر إلىٰ مساعدة غيره، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، في هذه العظمة، وهذا الكمال،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٣٦).

وهذه الأحديَّة، وهذه الصمديَّة، لا يُشبِهُ شيء، ولا يُكافئه شيء في أي شيء، فهو الأحد سبحانه.

ها أنت تفهم مقتنعًا ومرتاحًا لهذا التصوُّر عن الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن هذا تفهم أيضًا الوجود كلَّه، وتفهم نفسك؛ لأنَّ نفسك محتاجة مفتقرة، هي نفس تشعر بأنَّ فيها نقصًا، وهذا النقص لا يمكن أن تتعايش معه إلا إذا علمت أنَّ هناك كمالًا مطلقًا وقوةً وقدرةً لا يُعْجِزُها شيء، هي ملجؤها وملاذها، ولذلك عرَّف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه بالكمال في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، كل المحامد والكمالات مع المحبَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأيضًا؛ هذا الكمال يقودُك إلىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، إذًا هناك إدراك لطبيعة نفسك، وأنَّها متصفة بالنقص والاحتياج، وأيضًا واضح فيها أنَّ هذا النقص لا يُمكن أن تكون مرتاحًا معه إلا إذا لجأت إلىٰ الله وافتقرت إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن هنا تعرف أن وجودك مرتبط بهذه الغاية أصلًا، وهي أن تكون عبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي لجماله وكماله وعظمته وإحسانه وإنعامه يستحق كل المحبَّة وكل التعظيم، وهذا هو تعريف العبادة، فركناها هما: المحبة والتعظيم.

جمال الخِلْقَة الإنسانية:

الطبيعة الإنسانية جميلة؛ لأنَّ فيها الفطرة، وهي خِلْقَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصبغتُه التي صبغ النَّاس عليها، وقد خُلِقَ الإنسانُ في أحسن تقويم، وهذا يشمل الفطرة التي تَضْمَنُ للإنسان أنَّه علىٰ صواب في أساسيات تفكيره، وأنَّه إذا تفكَّر في رحمة الله عزَّ وجلَّ وكماله وعدله؛ عَلِمَ أنَّ هذا العقل الذي ينطلق منه في تكوين الأحكام الأساسية نعمة من الله، يمكن أن يقود إلىٰ تصوُّراتٍ صحيحة، عندئذٍ يطمئن إلىٰ

منطلقاته في التفكير -إذا بقي علىٰ الفطرة- وإن كان قد يقع الخلل في الأمور التفصيلية والتي تُؤثِّر عليها محدوديَّة عقل وعلم الإنسان، لكن الأساس صحيح.

جميلة هذه الطبيعة الإنسانية في وجود هذه الفطرة التي تميل للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتضغط علىٰ الإنسان حتىٰ لا يتعامَىٰ عن حقيقة وجوده، ولا يرتاح دون أن يُصبح تصوُّره لها صحيحًا.

أيضًا؛ هذه الفطرة تجعله يُدرك معايير الجمال، فيُفرِّق بين الحَسَنِ والقبيح، خاصة فيما يتَّفق عليه جميع الخلق، فهو يُفرِّق بين الأصوات المزعجة ونغمات الطيور، ويُفرِّقُ بين الحدائق والأزهار ومكبَّات الأوساخ مثلًا.

وكما أن خِلْقَة الإنسان جميلة المعنىٰ (الفطرة) فهي جميلة المبنىٰ (الجسد)، فقد جعله الله متكامل الأجزاء، متناسب المقاسات كأطوال الذراعين والرجلين، وجعل وزن الرأس مناسبًا ليحمله صاحبه ويلتفت به هنا وهناك.

ولو نظرتَ إلىٰ داخل هذا الجسد، فستجد عوالم أخرىٰ لا ينقضي منها عجبك، وتجد آثار الجمال والكمال والعظمة في التفصيلات والموازنات فائقة الدقة في داخل هذا الجسد.

ولا يقتصر ما ذكرناه علىٰ الشيء الضروري لك، أو الشيء الذي تحتاجه، بل حتىٰ الشيء الكمالي، فتجد القَدَم التي تدوس بها ذات انحناءات لإعطاء الراحة، ونرىٰ ذلك مختلفًا في الحيوانات التي قد تكون أقدامها مسطحة، أو منحنية بطريقة لا تتيح المشي، وإن كانت هي أيضًا مخلوقةً بصفة تُسَهِّل عليها وظائفها، فيظهر لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورحمته وجمال أفعاله التي تدُلُّ علىٰ جمال صفاته، وجمال ذاته، وندرك أنَّ الله سبحانه لكمال علمه وحكمته وقُدْرَته أعطىٰ كل شيء ما يناسبه، وخصَّنَا بمزيد عناية، فله تعالىٰ الحمد حمدًا يليق بكماله وإنعامه.

والوجود الإنساني جميلٌ في وظيفته وغاية خلقه وهي العبودية، وتأمَّل قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، كيف أنَّكَ تنتسبُ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنت منه، وأنت إليه، وأنت به؛ لأنَّه الحيُّ القيومُ.

هذا التصوُّر لنفسك وعلاقتك بالله عزَّ وجلَّ شيءٌ في غاية الرَّوعة والجمال، ويبُثُّ فيك الطمأنينة والراحة والفهم، وسنفصِّلُ في هذا الجمال أكثر إن شاء الله عند الحديث عن: «جمال العلاقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

جمال الانسجام والتكامل مع الوجود:

إنَّ النَّظَرَ إلىٰ الوجود المسخَّر بمفهوم الإسلام يُؤدِّي بك إلىٰ الانسجام مع هذا المعنىٰ الجميل الذي يبعث الاطمئنان في النَّفس، فكل الوجود يتوجَّه إلىٰ الله سبحانه ويدل عليه، وأنت إذا توجَّهت أيضًا إلىٰ الله عزَّ وجلَّ انسَجَمْتَ مع الوجود، أمَّا مَن يرىٰ الوجود في عشوائية يخبط بعضه في بعض دون هدفٍ فلن يجد الطمأنينة ولن يرىٰ الجمال في علاقته مع الموجودات.

فالموجودات تتكامل مع الإنسان بتسخير الله تعالىٰ؛ فالطفل -علىٰ صِغَرِ جسمه وضعفه- قد يمسك بزمام خيلٍ أو إبلٍ فيسوقه بأيسر ما يكون، وكذلك يُسخِّرُنا الله تعالىٰ لهذه المخلوقات، فيسوق لها الأرزاق من خلالنا، وتجد المأوىٰ عندنا.

ونجد في الطبيعة نباتات ذات خواص علاجية لا يبدو أنَّ لها فائدة لنفسها، بل هي مخلوقة لغيرها، فاستمتع بشاي النعناع وتأمَّل كيف يخفِّفُ عنك الاحتقان في مجاري التنفس، واذكر نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك.

إنَّ النظر إلىٰ الوجود بمنظار الإسلام يهديك إلىٰ أنَّ الأشياء خُلِقَتْ لغايات وسُخِّرَتْ للإنسان (كما نصَّ الله عزَّ وجلَّ علىٰ ذلك في كتابه في آياتٍ كثيرة)، وتجد الجمال ينبعث في نفسك وينساب أمامك في أرجاء الخلق، ليعطي لتأملاتك ومعايشتك للوجود معنىٰ خاصًّا جميلًا، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

جمال الغاية:

من الجماليات العظيمة للوجود في تصوُّرات الإسلام الكبرىٰ: «جمال الغاية»، فتجد أنَّ غاية خلقك هي العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما أجمل هذا المعنىٰ! فالغاية من كل الوجود هي تحقيق العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا عشتَ وأنت لا تعرف هذه الغاية، فستشعر بحَيرة وضياع وفقدان لأيِّ هدف.

إنَّ كلَّ شيء متعلِّق بهذه الدنيا لا بُدَّ له من نهاية، ولا بُدَّ فيه من نقص وقصور، فإذا جعلت أيًّا من ذلك غايتك، فلن تطمئن نفسك؛ لأنَّها مفطورة علىٰ حبِّ الكمال، أمَّا إذا تعلَّقت بالله عزَّ وجلَّ، وجَعَلْتَ بقية الأشياء تقودُك إليه، أي: جعلتها سببًا في الوصول إلىٰ رضاه، فستصبح الغاية عندك واضحة، وتنسجم أهدافك وأفعالك معها.

والعمل في هذه الحياة علىٰ أساس هذه الغاية يكسبك الطمأنينة، وكمال الفهم، والانتفاع بما في هذه الدنيا، ويستحيل أن تصِلَ لذلك بطريق آخر، فإذا ذهبْتَ -مثلًا- إلىٰ الأماكن التي يستمتع فيها النَّظر والسَّمع بالجمال كالحدائق والأنهار، فإنَّك ستبقىٰ فاقدًا لجزء مِن اللَّذة والمتعة الروحية، إذا لم تستشعر آثار أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خلق هذا الجمال وتسخيره، ولم تشعر أنَّ له غاية منها أن يبعث في نفسك الشعور بالجمال، والتفكُّر في صفات الله عزَّ وجلَّ، وجمال أفعاله.

جمال النهاية:

للوجود الدنيوي نهاية ينظر إليها كثير مِن النَّاس علىٰ أنَّها مُخيفة، ورُبَّما يراها بعضهم عدمًا محضًا، لكن الإسلام بتصوُّراته يجعل هذه النهاية باعثًا إلىٰ الأكمل، وقد فُطِرَت النُّفوس علىٰ التطلُّع للأكمل؛ فأنت تعلم أنَّ وراء هذه النهاية غايات ونهايات جميلة، فهذه النهاية ستنتهي بك إلىٰ جوار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورؤيته وسماع كلامه في الجنَّة، وأيُّ شيءٍ أجملُ من ذلك؟ وفيها مرافقة الأنبياء والصالحين، الذين طالما سمعت سِيرهم، وتطلَّعْتَ إلىٰ مرافقتهم وجوارهم.

ومن جمال النهاية كمال العدل والجزاء؛ فمن نعم الله تعالىٰ أنَّ العدل في هذه الدنيا يقع كثيرًا ولو بعد حين، لكن مِن سُنَّة الله أنْ يقع بعضه في الآخرة علىٰ التمام والكمال؛ فقد يخرج بعض النَّاس من الدنيا ولم ينالوا بعض حقوقهم؛ فكيف ينالونها؟ وأين سيكون ذلك؟ إذا لم تتصور أنَّ هذا الوجود ينتهي إلىٰ هذه النهاية؛ فلن تشعر بالرَّاحة والطمأنينة التي تُعالج كثيرًا من النُّفوس المتعبة ممَّا يقع من الظلم، أو الألم في هذه الدنيا.

إنَّ ما يقع مِن ألم للإنسان في هذه الدنيا يمكن أن ينقلب إلىٰ جمال إذا نَظَرَ إليه بما سيؤول إليه من الأجور العظيمة، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ورأىٰ أنَّه نوع من الاختصاص والاختيار، كما في الأثر: (إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابْتَلَاه)[1]، يريد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الابتلاء وما يتبعه من الصبر؛ رفع عبده إلىٰ منازل لم يكن يحلم بأن يصل إليها، فهنا تجد جمال لطف الله عزَّ وجلَّ في اختياره لعبده.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٢٣٦) برقم: (٩٣٢٩)، (السبعون من شعب الإيمان، وهو باب في الصبر على المصائب وعمَّا تنزع إليه النَّفس من لذة وشهوة - فصل أي النَّاس أشدُّ بلاء).

ولا تنس أنَّ هذه المآلات الحسنة فيها عودة إلىٰ الوطن، كما قال ابن القيم:

فَحيَّ عَلَىٰ جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها ... مَنَازِلُكَ الأُوْلَىٰ وَفِيهَا المخَيَّمُ

وَلَكنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ، فَهَلْ تَرَىٰ ... نَعُودُ إِلَىٰ أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ[1]

والشعور بالعودة إلىٰ الوطن والتطلُّع إلىٰ ذلك واقترابه هو شعور جميل.

ومعرفتك برحمة الله عزَّ وجلَّ وأسمائه وصفاته وُفق ما جاء به الإسلام تجعلك تُحسِنُ الظَّنَّ به، وأنت تصِلُ إلىٰ هذه المرحلة الحرجة التي تنتقل فيها من الحياة الدنيا إلىٰ حياة البرزخ، ثُمَّ الآخرة، وقد جاء في الحديث: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بالله الظَّنَّ)[2]، وحسن الظن هذا بلسم للقلوب الخائفة من الموت، خاصة أنَّ وقت الموت من المواضع التي يشرع فيها تغليب جانب الرجاء، وبهذا تجدُ جمال الاشتياق.

وفي التصوُّر الإسلامي: تنزل الملائكة علىٰ العبد وتُبشِّره عند الموت، ويُبشَّر في البرزخ، ويرىٰ مقعده من الجنَّة، ويُفسَحُ له في قبره، فأين التصوُّرات الأخرىٰ العدمية من هذا الكمال في التصوُّر الإسلامي؟!

إنَّ هناك جمالًا عظيمًا في النَّظَر إلىٰ وجود الإنسان وغيره من الموجودات وَفْقَ الإسلام، وفي النَّظَر إلىٰ عالم الغيب وعالم الشهادة، وفي النَّظَر إلىٰ الوجود الدنيوي الآن، ثُمَّ الوجود الأُخروي، في نظرة الإنسان إلىٰ نفسه من ناحية خِلْقَتِه وفطرته، وانتسابه بالعبودية إلىٰ ربه، وفي نظرته إلىٰ الله عزَّ وجلَّ من ناحية جمال أسمائه وصفاته ومعيَّته.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١/ ١٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦٥) برقم: (٢٨٧٧)، (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت).

جمال وجود المعيَّة:

أختم بقضية المعيَّة التي هي من أجمل المعاني، فهذا الوجود الدنيوي فيه معيَّة الله عزَّ وجلَّ، وهي معنىٰ جليل عظيم، فمتىٰ ذكرتَ الله عزَّ وجلَّ كان معك، كما في الحديث القدسي: (أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ)[1]، وجاء في الحديث القدسي أيضًا: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[2]، وكم في القرآن من آيات تُذَكِّر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع المتقين وغيرهم ممَّن ثبَتَتْ لهم المعيَّة الخاصَّة، وهناك معيَّة عامَّة لجميع المخلوقات برعايته لها وشهوده لما تفعل.

وهذا المعنىٰ إذا استحضره العبد في أشدِّ اللَّحظات ضيقًا، واستعان بالصلاة وبالقرآن؛ فستختلف نظرته لما يجري في حياته تمامًا، ولذلك تجد أنَّ بعض النَّاس يصبر صبرًا عجيبًا مع شِدَّة ما يلاقي، وصدق الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ٧٠٧) برقم: (٣٧٩٢)، (أبواب الأدب - باب فضل الذكر)، وأحمد في مسنده (١٦/ ٥٦٨) برقم: (١٠٩٦٨)، (مسند أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)، (كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾)، ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٢) برقم: (٢٦٧٥)، (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى).

الرحلة الثالثة

«جمال العلاقة بالله تعالى»

أهمية العلاقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

إنَّ علاقة العبد بالله عزَّ وجلَّ هي أهم علاقة في الوجود، فهي العلاقة التي ترتبط بسبب وجودنا وغايتِه، وهي عبوديتنا لله عزَّ وجلَّ، وهذا ما يُبيِّنُ لك شرف الموضوع وخطورته.

ولو نظرنا إلىٰ آثار هذه العلاقة، فسنجد أنَّها آثار شريفة وعظيمة، ولا غنىٰ للإنسان عنها، فهي تُؤدِّي إلىٰ «جمال الفهم» لموضعه في هذه الحياة، وإلىٰ أين يتَّجِه؟ وتؤدِّي إلىٰ فهم نفسه وكيف يرتقي بها؟ وإلىٰ أين ينبغي أنْ يكون هذا الارتقاء؟ وما هو مصدر الكمال الذي يتَّصِل به.

وهذه العلاقة تُلبِّي حاجة الإنسان الفطرية، فهو ضعيف يحتاج إلىٰ مصدر للقوة والكمال، وقيوميَّةُ الله عزَّ وجلَّ وربوبيتُه تُشعره بالطمأنينة والراحة، وأنَّه أشبع هذا الجانب.

جمال الفهم:

إنَّ عدمَ فهم الإنسان وتحيُّرَه في وجوده ووجهته أمرٌ مزعجٌ مُؤلمٌ للنفس، يجلب لها الحيرة، ويجعل حياتها سوداوية عدمية، أمَّا إذا فَهِمَ الإنسانُ سببَ وجوده ووجهته وغايته، وفَهِمَ كيف يعيش في هذه الحياة؛ فسيحيا حياة مطمئنة، فيها صلاح للحال في الدنيا والآخرة؛ وهذا الفهم يجعله في اتساق مع سبب وجوده وسنن الله تعالىٰ في هذا الوجود، فيقوده ذلك إلىٰ الطمأنينة والراحة.

ويترتَّب علىٰ هذا الفهم -والعمل تبعًا له- أنْ يدخل الإنسان في عالم جمال التألُّه لله سبحانه، واتصال ذلك بالفهم ظاهر؛ فعندما تنظر لنفسك وترىٰ ضعفك، فستعلم أنَّك مهما قويت في جسدك، أو في علومك؛ فأنت محاصرٌ بالنقص، غارقٌ فيه، لا يمكن أن تخرج منه، فليس لك بُدٌّ إذًا من الاتصال بمصدر الكمال والقوة، بأن ترجع إلىٰ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي له كلُّ كمال، فإذا رجعت إليه، وأنزلتَ ضعفك بساحته، ودخلت عليه بحاجتك؛ أغناك وكفاك وتولَّاك، فتحصل لك الطمأنينة والراحة؛ لأنَّ القوي الذي خلق هذا الوجود يحرسك ويحفظك ويحميك.

فجمال الفهم وما يترتَّب عليه من العمل إذًا حاجة حقيقية في الإنسان، ولذلك نجد في سورة الفاتحة -التي جمعت أهم المطالب التي يحتاجها الإنسان-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وهو توجُّه إلىٰ الله ﷻ من العبد بكُلِّيَّته، بعد أن عرف كماله، ففي بداية السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وهذا ثناء المحبِّ علىٰ الله عزَّ وجلَّ بكماله، وفيه جعلُ الحمد كلِّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّه مُتَّصِفٌ بكل كمال، مُنزَّه عن كل نقص.

ومع هذه المعرفة بكمال الله عزَّ وجلَّ، لا بُدَّ أن تنظر إلىٰ ضعف نفسك، فيكونَ دخولك عليه دخولَ المضطر المحتاج، بل إنَّك محتاج إلىٰ الله عزَّ وجلَّ أن يُعينك علىٰ ذلك الدخول نفسه، لذلك تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وإذا أدرك الإنسان ضعفه وحاجته إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، كان لسان حاله لاهجًا بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أي: ليس لي تحوُّل من حال إلىٰ حال، من فسادٍ إلىٰ صلاحٍ، من ضعفٍ إلىٰ قوة، إلا بالله عزَّ وجلَّ، فيكون القلبُ مُتَعَلِّقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مرتقيًا في منازل العبودية.

جمال المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

إنَّ معرفةَ العبد بربِّه سبحانه تُنْتِجُ في نفسه جمالًا وحلاوةً تغمرها، وهذه المعرفة هي أساس العلاقة بالله عزَّ وجلَّ، فمن عرف الله تعالىٰ أحبَّه وعظَّمه ولجَأَ إليه، وكلَّما عرفتَ ربَّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استشعرت الجمال في أسمائه وصفاته وأفعاله وأقداره.

فللمعرفة لذَّة وجمال معنوي، ومن أعظم ذلك أن تعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته، وقد سمَّىٰ الله تعالىٰ أسماءه حُسنىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ لأنَّها حسنة في الأسماع، يشعر الإنسان بجمالها، وأين سيكون الجمال إن لم يكن في الكمال؟ إن لم يكن في الذي خلق الوجود وخلق الجمال فيه؟

وهذا ممَّا ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان ويستشعره، فتنتج عنه تلك اللَّذة وتلك الرَّاحة، ويحصل ذلك بالتدبر في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وفي سنة رسوله ﷺ، ويحصل بالتفكُّر في حال الإنسان ونفسه التي بين جنبيه، وفي بقية المخلوقات، ليرىٰ فيها آثار أسماء الله تعالىٰ وصفاته وكماله وجماله عزَّ وجلَّ.

فينظر الإنسان للوجود بما فيه نظرة مختلفة، ويعتني بعبادة التفكُّر، وهي من أجمل العبادات التي ينعكس أثرها مباشرة علىٰ القلب، محبَّةً وإجلالًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشعورًا برحمته، وأنَّ كل هذا الوجود متوجِّهٌ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، داخلٌ في عبوديته وطاعته والانقياد إليه، وله نظام كوني يسير عليه بتسخير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فأنت عندما تتفكَّر في ذلك، تجد أنَّ مِن الجمال أن تنسجم مع هذا الوجود في التوجُّهِ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، والطاعة والالتجاء إليه، فهذا أيضًا مِن الجمال؛ لأنَّ مِن سمات الجمال وأساسياته -سواء في المحسوسات أو في الأمور المعنوية-: الاتساق، فاتساقك مع الوجود في العبودية جميل، ونِعَمُ الله عليك جميلة، وحمْدُك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستشعارك النعم جمال.

ففي تعاطي العبد هذه النِّعم مستشعرًا أنَّها نِعَم جمال، يزيد تلذُّذه بها إذا شكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من الجماليات، فالإسلام يُعطيك قِيَمًا ومعاني في حياتك وفيما تُمارسُه لا توجد خارج دائرة الإسلام.

ومن جمال معرفة الربِّ معرفته باسمه: «القيوم»، فهو الذي يقوم علىٰ عباده ويراهم ويكلَؤُهم بعنايته وحفظه، وإذا استحضر الإنسان هذه القيوميَّة بشكل خاص ازداد من الطمأنينة؛ لأنَّه يعرف أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يراه ويرعاه ويحفظه، كما جاء في الحديث: (احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ)[1]، فإذا حفظَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نفسه وراقبَه؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحفظه.

ومن آثار جمال المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: الشعور بمعية الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّك إذا عرفت الله عرفت معيَّته العامة، وقد قال تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، إلىٰ آخر الآيات، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا معك، كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه(٤/ ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦)، (أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٨-١٩) برقم: (٢٨٠٣)، (مسند عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ).

فإذا أطعتَ الله تعالىٰ، وحفظته، وتقرَّبت إليه؛ فستشعر بأنَّ هذه المعيَّة معيَّة نُصرة، ومعيَّة رحمة، ومعيَّة هداية وتوفيق وولاية، وهذا شعور جميل جدًّا، وأحسبُ أنَّ استشعاره في أوقات الشِّدَّة مِن أعظم المثبِّتات، التي تجعل العبد يستقر نفسيًّا، ويقدر علىٰ تحمُّل الصِّعَاب، وهذه سُنَّة الحياة، أنَّه ما من إنسان إلا سيتعرض للابتلاءات في بعض الأشياء التي يُحبُّها، بنقص مال، أو خوف، أو أي شيء من هذه الأشياء التي نتألَّم إذا فقدناها، أو إذا أُصِبْنا فيها.

ومن أعظم أسباب الصبر في هذا الحال استشعار معيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبده، وأنَّ كل ما تصبر عليه في هذه الدنيا ستُوتىٰ أجرك عليه بغير حساب، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وتستشعر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معك، حتىٰ إنَّه جاء في الحديث القدسي في شأن المريض، أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: (يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ، فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ)[1].

ومن الجمال في معرفته سبحانه معرفته باسمه: «القريب»، ومِن أخصِّ مواضع القُرْب: السجود، وقد جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]، ولذلك قال فيه النبي ﷺ: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)[2]، وقال: (وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)[3]، يعني: جدير أن يستجاب لكم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣) برقم: (٢٥٦٩)، (كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل عيادة المريض).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٩) برقم: (٤٨٢)، (كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٨) برقم: (٤٧٩)، (كتاب الصلاة - باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود).

ومن الجمال في معرفة الله تعالىٰ أن تعرفه باسمه: «اللطيف»، وتتأمَّل كيف يلطفُ تعالىٰ بك ويُوصِلُ لك الخير بحكمته، ومن اللُّطف أن يكون ذلك بخفاء، وممَّا يُعمِّق المعرفة بهذا الاسم تدبُّر سورة يوسف عليه السلام، ففيها تلطَّف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فجعل إلقاءه في البئر موصلًا إلىٰ مكان ابتلي فيه عدَّة ابتلاءات، حتىٰ انتهىٰ به الأمر إلىٰ أن يكون عزيزًا علىٰ خزائن الأرض.

فالله تعالىٰ يتلطَّف بعبده وينقله من حالة إلىٰ حالة، حتىٰ يُوصله إلىٰ أعزِّ المنازل، وهذا إذا تأمَّل فيه العبد وجد في نفسه تأثُّرًا عظيمًا، وشعر بجمال أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يمكن للإنسان ألا يتعرَّض للُطْفٍ في حياته، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفتح علىٰ بعض الناس -خاصَّة ممَّن يرضىٰ بالله عزَّ وجلَّ ويُسلِّم له- فيستشعر هذه الألطاف، ويرىٰ في الأقدار جمالها، ثم إذا وقعت أقدار لم يفهم معناها وحكمتها؛ أيقن أنَّ لله تعالىٰ فيها ألطافًا، وأنَّه إذا أحسن الظنَّ به سبحانه، ورضيَ به؛ فسيفيضُ عليه من رحمته وبركاته.

جمال التألُّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

التألُّه من العبد يُقابل ربوبية الله ﷻ وأسماءه وصفاته، ونجد في القرآن أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما يذكر أسماءه وصفاته -وخصوصًا صفات الربوبية وأفعال الربوبية- يُؤكِّدُ علىٰ توحيد الألوهية، بأن يتوجَّهَ العبدُ إلىٰ الله ﷻ وحده بالعبادة، بغاية الذُّلِّ والمحبَّة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذًا عندما تعلم ربوبية الله عزَّ وجلَّ وتزداد معرفة به من جهتها يحصلُ عندك زيادة في كمال التعبُّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

ومن أعظم الجمال في العلاقة بالله تعالىٰ أن تُوحِّدَه عزَّ وجلَّ بالألوهية، وتُقْبِلَ عليه وتحبَّه وتُعظِّمَه، وقد سبق أنَّ «الإله» هو: المعبود، والعبادة تقوم علىٰ ركنين: المحبة والتعظيم، وتُعرَّفُ بأنها: (غاية الذل لله بغاية المحبة)[1] لله ﷻ، فهذا الشعور بحبِّ الله ﷻ وتعظيمه شعور جميل جدًّا، إذا استشعره وجد الاتساقَ والارتياحَ؛ لأنَّه خُلِقَ لهذا، وفطرته تدعوه إليه، فإذا تقبَّلَه ولم يتكبَّر؛ فسيَجِدْ في نفسه ولا بُدَّ الراحة والطمأنينة، وهذه مشاعر جميلة تُحبُّها النَّفس.

والتألُّه والتعبُّد لله عزَّ وجلَّ هو فرعٌ عن معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلَّما كنتَ بالله عزَّ وجلَّ أعرَفَ زادَ حبُّك وتعظيمُك له سبحانه.

ومن الجماليات في هذا التألُّه: أنَّه يجتمع مع الخوف ومع الرجاء، وهذا لا يكون إلا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأنت في العادة إذا خشيت من مخلوقٍ فررت منه واستوحشت، أمَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأنت تخافه مع حُبِّه في الوقت نفسه، فتفِرَّ إليه كما قال سبحانه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠]؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُخْشَىٰ منه أن يظلِم، ولأنَّه الحليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد فتح باب التوبة لعباده ودعاهم إليه مهما فعلوا، فهذا يجعل الإنسان يشعر بأن هذا الخوف هو خوف عبادة وتعظيم لله عزَّ وجلَّ، يجتمع مع المحبَّة والرجاء.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (محبَّة العبد لربِّه فوق كلِّ محبَّةٍ تُقدَّر، ولا نسبة لسائر المحابِّ إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله)[2]، حقيقة لا إله إلاَّ الله تعود لإخلاص محبة العبادة لله، فالمحبة هي أساس العبودية، ومحبة العبودية يكون معها التعظيم لله عزَّ وجلَّ.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ١٥٣).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٣).

ثُمَّ يقول في موضع آخر: (فلو بَطَلَتْ مسألة المحبة؛ لبَطَلَتْ جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطَّلَتْ منازلُ السَّير، فإنَّها روح كلِّ مقامٍ ومنزلةٍ وعملٍ، فإذا خلا منها فهو ميِّتٌ لا روحَ فيه، ونسبتها إلىٰ الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنَّه الاستسلام بالذُّلِّ والحبِّ والطَّاعة لله، فمن لا محبَّةَ له لا إسلامَ له البتَّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإنَّ الإله هو الذي تَألَهُه العباد حبًّا وذلًّا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعةً، «إله» بمعنىٰ: مألوهٍ، وهو الذي تألهه القلوب، أي: تُحبُّه وتَذِلُّ له، وأصل التَّألُّه التّعبُّد، والتَّعبد آخر مراتب الحبِّ، يقال: عبَّدَه الحبُّ وتيَّمَه: إذا ملكه وذَلَّلَه لمحبوبه، فالمحبَّة حقيقة العبوديّة)[1].

وهذا كلام جميل جدًّا يدلُّك علىٰ شرف هذه المنزلة، منزلة المحبة.

ومن الجمال أيضًا: أنْ ترجو الله وتخافه، جامعًا بين الخوف والرجاء كجناحي الطائر؛ فإذا استعمل الجناحان طار بأحسن حال، وإذا أخلَّ بأحدهما اختلَّ حاله، وهذا من الشمول والتوازن اللَّذَين يُعَدَّان أيضًا مِن سمات الجمال.

والحب الذي يكون بين النَّاس لا يكون معه كمال خوف ولا كمال رجاء؛ وإنَّما يكون حبًّا من مخلوقٍ لمخلوق آخر مصيره أن يموت، فليس التعلق به إلا تعلُّقًا مُقيَّدًا بهذه الدنيا، بل إنَّه مقيَّدٌ في جزء صغير منها، أمَّا إذا أحببْتَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعظَّمْتَه؛ ارتقيت إلىٰ أشرف المقامات التي يمكن أن يبلغها إنسان، ولذلك من الجماليات أن تنتسب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعبوديَّته، فإنَّك عبد الله، ولذلك جاء في الحديث عنه ﷺ: (إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَىٰ الله، عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ)[2].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ١٦٩) برقم: (٢١٣٢)، (كتاب الآداب - باب النهي عن التكنِّي بأبي القاسم).

فهذه العبودية هي أشرف المقامات، والله تعالىٰ لـمَّا شرَّف نبيَّه ﷺ بالإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، فسمَّاه: «عبده»، وتجد في القرآن أنَّ معظم المواضع التي يُخاطب الله تعالىٰ بها البشر بصفة العبودية هي مواضع محبة، كقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحبَّبَ إلينا بهذا الاسم: «عبادي»؛ لأنَّ العبوديّة تُمثِّلُ أصل الصلة بيننا وبين الله عزَّ وجلَّ، وهذا يُشْعِرُ العبد بكمال التعلُّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه ينتسب في هذا الوجود إلىٰ ربِّ العالمين، الذي يُدبِّرُ كل شيء، وتحت قهره وملكه وعظمته كلُّ شيء، فهو الحيُّ القيُّوم الأعلىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واقرأ في ذلك آية الكرسي، فإنَّ فيها مِن صفات جلال الله عزَّ وجلَّ ما يجعلك تعيش في اطمئنان وراحة أنَّك عبد لهذا الإله العظيم، ويجعلك تقدِّر قيمة هذه النِّعمة وجمال وجودها في الحياة.

ومن أهم آثار العبودية طمأنينة العبد بتوكُّله علىٰ الله عزَّ وجلَّ، ومدخل التوكُّل وبابه هو معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بربوبيته، فإنَّك إذا عرفت الله عزَّ وجلَّ بربوبيته اطمأننت، ومع بذْلِك ما أُمِرْتَ به شرعًا من الأسباب فإنَّك تُفوض الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مستشعرًا أنَّه الربُّ الرحيم الذي يحفظُك ويرعاك ويلطُفُ بك.

جمال الاستعانة والدعاء:

ومن الآثار الجميلة التي تترتَّب علىٰ هذه العلاقة: استعانة العبد بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيلجأ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، ويدعوه ويطلب منه المعونة؛ لأنَّه يعلم أنَّه الرحيم الذي يُجيب المضطر إذا دعاه، وأنَّه القريب السميع البصير، وأنَّه الحَكَم العدل سبحانه، فإذا تعرَّض العبد لمظلمة لجأ إليه، وإذا احتاج شيئًا عَلِمَ أنَّه الرَّزَّاق، وأنَّه يُحِبُّ مِن عباده أنْ يلجؤوا إليه، وهذا مِن أعظم الجماليات، فليست القضية أنَّ مَن يدعوه يُجيبه فقط، بل إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحبُّ هذا الدعاء.

وتأمَّل قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقارنه بقوله عزَّ وجلَّ بغيره من مواضع السؤال المفتتحة بقوله تعالىٰ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ تجد أنَّه تعالىٰ يأمر نبيَّه ﷺ أن يجيب، كما قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٠]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢١٩]، لكن في هذه الآية قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] الآية، فأجاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده بنفسه مباشرة، ولم تقترن الآية بأمر النبي ﷺ بالقول جوابًا، ليُعلم أنَّ باب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مفتوح للسائلين، وأنَّه يُحِبُّ هذا العمل من عباده.

إنَّ ربَّ العالمين سبحانه هو العزيز الذي لا يُوصَلُ إليه بالأذىٰ، وهو الأعلىٰ القويُّ المتنزِّه عن أي ضعف ونقص، وهو أيضًا الرحيم القريب المجيب، فإنْ أردت أن تُنَادِيَه في أي وقتٍ سمعك، أو تلجأَ إليه أجابك، أو تستغفرَه غفر لك، أو تسأله أعطاك سُؤلك، أو خيرًا ممَّا سألت، فما أجمل هذا المعنىٰ!

وأنت لو استحضرت أي شخصيَّة مهمَّة في هذه الدنيا -خاصة إذا كان لها مُلْك وقوة ومال- فستجد أنَّه كلَّما زادت القوَّة والمال صعب الاتِّصال، ولكن رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معك أينما تكون، بحفظه ورعايته وسمعه، فيسمع نداءك ويُجيبُك برحمته وكرمه؛ لأنَّه الغني الذي لا تنفد خزائنه.

جمال الرضا بالله عزَّ وجلَّ:

ومن الأشياء الجميلة التي لا أودُّ أنْ أفوِّتَها جمال الرضا بالله عزَّ وجلَّ، بأن ترضىٰ به ربًّا خالقًا رازقًا مُدبِّرًا، ترضىٰ بما يقضيه بحكمته، وبما أمر به عباده من الأوامر، وهذا مرتبط بالتسليم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا يليق بالعبد الضعيف الفقير الناقص أن يُقابل أمر الله عزَّ وجلَّ وتدبيره إلا بالتسليم والرِّضا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم وأحكم، وأعلم بما هو خيرٌ له، فإذا حصل من العبد هذا الرِّضا، دخلتْ في قلبه الطمأنينة، وشعر بالأمان، وحَسُنَ الظنُّ بربِّه عزَّ وجلَّ أنَّه سيعوضه عمَّا نقص وعمَّا فَقَدَ، وبغير ذلك سيعيش الإنسان في صراع مع الأقدار، وهو الخاسر فيه بلا شك لضعفه ونقصه؛ لذلك يقول النبي ﷺ: (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا)[1]، فهذا مِن أعظم الأشياء التي يذوق العبد بها حلاوة الإيمان، وجمال الصلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

جمال الصبر على العبادة والشكر:

إنَّ في العبادات التي تحتاج إلىٰ مُصابرة وتحمُّل للمشاق لَجَمالٌ! فهي تدلُّ علىٰ أنَّ العبد عظَّم الله عزَّ وجلَّ وأحبَّه، فعندما يقوم هذا المقامَ بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تشعر بجمال هذا العبد، وهذا العبد هو الذي يُضحِّي من أجل الآخرين، ويُؤثر علىٰ نفسه؛ لأنَّه هو الذي يُغالب هواه، ويغلبه ليصل إلىٰ رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتلك أعظم الغايات عنده، فيُقَدِّمها علىٰ بقية الأشياء، ويقتحم لأجلها العقبات.

وفُطرتِ النُّفوس علىٰ استحسان الشكر واستقباح ضدِّه وهو الكفر، وعندما يشكر العبد ربَّه عزَّ وجلَّ يكسوه الجمال، وقد وعده الله تعالىٰ بالزيادة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦) برقم: (٣٤)، (كتاب الإيمان - باب ذاق طعم الإيمان مَن رَضِيَ بالله ربًّا).

جمال الصلاة:

هذه العبادة العظيمة الجليلة تجمع بين الدُّعاء والذِّكْر، وتجمع بين مقامات المحبَّة لله والتعظيم والخضوع، والركوع والقُرب والسُّجود وغيرها من المقامات العظيمة، ويُقرَأ فيها القرآن العظيم بألفاظه وتراكيبه ومعانيه الجميلة، وخاصة سورة الفاتحة التي هي ركن في الصلاة.

إنَّ الصلاة صلة بالله عزَّ وجلَّ، تُعرِّفك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو تُرِك الإنسان في هذه الحياة دون الصلاة فسيغفل، وإذا خُيِّر بين أن يتصل بالله أو لا يتصل، فربما يختار الشيء الذي يتوافق مع الهوىٰ والكسل، ولكن مِن رحمة الله أنَّه فَرَضَ علينا هذه الصلوات حتىٰ نتَّصِلَ به، فإذا اتصلنا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قُمْنا بين يديه مقام الخشوع والمحبَّة والإجلال والتعظيم، ونلنا القُرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقمنا مقام الثناء عليه -كما في سورة الفاتحة- ومقام المناجاة؛ لأنه يَرُدُّ علينا، كما جاء في الحديث: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)[1].

فهي صلة عظيمة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليست خطابًا من طرف واحد كما سبق في الحديث، بل إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُحِبُّ منك هذا العمل، فتشعر بذلك أنَّه تعالىٰ ينظر إليك، فتعبده كأنَّك تراه من شِدَّة التعلُّق به، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٩) برقم: (٣٩٥)، (كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة).

جمال الهداية:

ما أجمل أن تشعر أنَّك اخترت من بين هذا الأنام، لتعرف وُجهَتَك، وتعرف كيف تعيش في هذه الحياة، وما هو الهدف من وجودك أصلًا، وإلىٰ أين تسير، فيحصل لك من الراحة والطمأنينة والفرح بهذه النعمة العظيمة ما لا يمكن أن يُوصف.

جمال شرح الصدر:

وهو من أعظم الآثار، يقول تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وهذا من أعظم العواقب وأجملها وأجلها، وكلَّما ازداد العبد معرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإيمانًا به وتسليمًا له؛ شرح الله عزَّ وجلَّ صدره، فتجد صاحبَ الابتلاءاتِ والمشاكلِ منشرحَ الصدر، وتجد قليل ذات اليد إذا تناول اللُّقمة شعر بلَذَّةٍ فيها، وأنّها نعمة من الله عليه، واتصل بالله سبحانه في هذا الأمر الدنيوي شُكرًا وحمدًا واستشعارًا لنعمه، وعند ذلك يُنزِل الله في قلبه من الطمأنينة والفرح بالله عزَّ وجلَّ والأنس به ما لا يُوجد عند غيره.

جمال الولاية:

الولاية من المحبَّة والقُرب، وتكون بأن توالي الله عزَّ وجلَّ وتُحِبَّ فيه، وتُبغِضَ فيه، وفي المقابل يُحبك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويتولَّاك، كما جاء في الحديث: (مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ

الْمؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْموْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1]، فانظر كيف تكون الصِّلة، وقوة العلاقة بين العبد وبين الرَّب إذا حصلت له هذه الولاية، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فضله.

جمال التطلُّع للآخرة:

إنَّ العلاقة بالله عزَّ وجلَّ في الآخرة لها وضع خاص غير ما ذكرناه في الدُّنيا، ففي الآخرة يَلْقَىٰ المؤمنُ ربَّه سبحانه ويراه عيانًا، وهو لقاء نعيم، يشتاق إليه المؤمن، وهو أعلىٰ نعيم الجنَّة، سمَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمزيد، وهو أعلىٰ مقامات الجمال في الجنَّة، يُكسىٰ فيه العبد بالجمال فيزدادُ جمالًا، كما جاء عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَالله لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَالله لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا)[2].

ومن جماليات الآخرة: مجاورة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، لذلك قالت امرأة فرعون، كما حكىٰ الله تعالىٰ عنها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، وقالتْ: ﴿عِندَكَ﴾ فاختارت الجوار قبل اختيار الدَّار.

ومن جمالياتها: أن يأتي الوقت الذي تعلَم فيه أنَّ الله تعالىٰ رَضِيَ عنك بيقين، فلا يبقىٰ في نفسك قلق أو خوف، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُخاطب المؤمنين في الجنَّة: (يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢)، (كتاب الرقاق - باب التواضع).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٥) برقم: (٢٨٣٣)، (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال).

ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا)[1]، فتخيَّل هذه اللَّحظة وجمالها، وسعادة المؤمن وقتها وطيب عيشه.

ومن جماليات العلاقة بالله عزَّ وجلَّ في الآخرة: أنَّ العباد يُلْهَمُون الذِّكْر، ويتيسَّر لهم مثل النَّفَس، فلا يعود فيه مشقة، كما جاء في الحديث: (يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ)[2]، وهذا الذِّكْر جميل؛ لأنَّه ثناء علىٰ الجميل بكماله سبحانه، فإذا كان كالنَّفَس، ودون مشقَّة؛ فهذا جمال مُيَسَّر متواصل، بل هو مِن النَّعيم.

خاتمة في إصلاح العلاقة بالله تعالى:

هذه اللَّفَتَات الجماليَّة تكشف لنا أهميَّة هذه العلاقة في صلاح الإنسان واستقامة حياته وسيره إلىٰ الله تعالىٰ، والواقع يُؤكِّد ذلك؛ فكثير من الشُّبُهات تنشأ من فساد العلاقة بالله عزَّ وجلَّ، والعكس بالعكس؛ فمن عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقَّ المعرفة فلا بُدَّ أن يُحِبَّه، ويُوقِنَ بحِكْمَته، ويرضىٰ بقضائه، ويُحسِنَ الظنَّ به، وهذا كفيل بوقايته من كثير من الشُّبُهات والشَّهَوات المحرَّمة، مع ما يُؤدِّي إليه ذلك من الإقبال علىٰ الله عزَّ وجلَّ بالطاعات.

ومَن عرف الله تعالىٰ بحِكْمَتِه التي لا تُحَدُّ ولا يُحَاطُ بها، علم أنَّ أفعاله كلها حكمة، فرضي بأقداره وشرائعه، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١٤) برقم: (٦٥٤٩)، (كتاب الرقاق - باب صفة الجنة والنار)، ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٤) برقم: (٢٨٢٩)، (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب إحلال الرضوان على أهل الجنة).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٧) برقم: (٢٨٣٥)، (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فِي صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًّا).

فينبغي علىٰ العبد أنْ يتدبَّرَ هذه المعاني في القرآن، ويستفيدَ من الكتب والمحاضرات التي تتكلَّم عن تزكية النَّفْس ومعرفة الله عزَّ وجلَّ بأسمائه وصفاته، ساعيًا في إصلاح هذه العلاقة التي إنْ صلحت صلح أمره كله.

الرحلة الرابعة

«جماليات النبوة»

من جمال العناية الإلهية بالإنسان أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خلق أبانا آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، ثُمَّ بعد أن اعتنىٰ به خلقًا فخلقه في أحسن تقويم، اعتنىٰ به أمرًا، فأسجَدَ له ملائكته، وهم كرام خلقه.

ثُـمَّ لـمَّا ابتُلي بالمعصية فعصىٰ، نـزل ووجـد في هـذه الأرض عناية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مستمرة معه، فالأرض مهيَّأة لحياته، من ناحية المسكن والتنقل، ومن ناحية النور والحرارة ووسائل المعيشة والطعام والشراب، إلىٰ غير ذلك من النِّعَم التي مَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علينا بها، كما قال ﷻ في القرآن: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

وهناك عناية من نوع آخر العبد أشد حاجةً إليها من العناية التي تُقيم الجسد، وهي العناية التي تُقيم الروح، فأنزل الله تعالىٰ الوحي الذي فيه الهداية والضمان لاستمرار الإنسان علىٰ الفطرة الحسنة التي فطَرَهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليها، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون هذا الوحي عن طريق الرسل والأنبياء، الذين اختَصَّهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذه المنزلة.

وفي هذا الوحي وهذه النبوة صلة بين الله تعالىٰ وخلقه، وفي ذلك مِن معنىٰ الجمال ما يأخذ النُّفوس بالدَّهشة، فما أعظم حجم العناية بك أيُّها الإنسان، وأنت الجرم الصغير في هذا الكون الواسع، كأنَّك ذرةٌ في محيط، ثم تجد أنَّ ربَّ العالمين «خالق هذا الوجود» كلِّه يعتني بك، ويُوصِلُ إليك رسالاته حتىٰ لا تضِلَّ، يريدك أن تتعرَّف إليه، وأن تحبَّه، ثُمَّ تعرِفَ أمره الذي تستقيمُ به حياتك، وتحصُلُ به مصلحتُكَ أنتَ في الدنيا والآخرة.

فتأمَّل جمال هذا المعنىٰ، كيف أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اعتنىٰ بعبادِه أيَّما عناية عندما خلقهم، ثُمَّ لم يتركهم همَلًا، لا يُؤمرون، ولا يُنهَون، ولا يُرشَدون إلىٰ ما فيه صوابهم، مع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فطرهم فطرة جميلة، إلا أنَّه زاد في العناية بهم، فأرسل إليهم الرُّسُل، وأنزل عليهم الوحي الذي يُؤَكِّدُ الفطرة ويُكمِّلها، ويزيدها جمالًا وتفصيلًا، إنَّ هذا لمن أعظم جماليات النبوة.

وهذه الأرض التي جعلها الله مستَقَرًّا ومتاعًا، جعلها أيضًا مسرحًا للتعبُّد له ﷻ، لذلك نحتاج فيها إلىٰ الأنبياء؛ لنَعْرِفَ كيف نصل إلىٰ الله ﷻ، وكيف نرضِيه ونتعبَّده بما يقربنا إليه، وجعلها كذلك مسرحًا للابتلاء، الذي لا نستطيع أن نواجهه بغير هداية الله ﷻ، وهنا يأتي الوحي مُؤَيِّدًا وهاديًا، ونورًا مبينًا كما سمَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

جمال الاتصال بين الرسولين:

ثُمَّ إذا انتقلنا في موضوع الوحي إلىٰ الاتصال بين الرَّسول ﷺ وبين جبريل عليه السلام، فسنجد فيه من الجمال ما فيه، فهو اتصال بعالَم الغيب الواسع الكبير الذي لا يُقَارَنُ بعالم الشهادة، وفيه رهبة وهيبة، إلا أنَّ النَّفس البشرية تتطلع إليه، وترتاح وتسكن إذا اطمأنت إليه، ولذلك نجد أنَّ النبي ﷺ حَزِنَ لـمَّا فتَرَ عنه الوحي[1].

وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ الرُّسُلَ إلىٰ البشر لا بُدَّ أن يكونوا من البشر لا من الملائكة؛ لأنَّنَا لا نطيقُ الاتصال بالملائكة، ولا نُحْسِنُ الاقتداء بهم، وهم مختلفون عنا في خلقتهم اختلافًا كبيرًا، لكن الرُّسُلُ من البشر تحمَّلُوا تلك الأمانة، فأعطاهم الله القوة علىٰ الاتصال بالملائكة، كما جاء في الحديث عن ابن عباس أنَّ

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٦/ ١٧٣) برقم: (٤٩٥٣)، (كتاب تفسير القرآن - سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق - باب حدثنا يحيى بن بكير).

النبي ﷺ كان (يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً)[1]، وهذا مصداق قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

مكتبة
t.me/soramnqraa

جمال اتصالنا بالرسول:

أمَّا الاتصال الآخر الذي يقع بين البشر أنفسهم وبين الرُّسُل البشرية، فهو اتصالٌ عايشه بعض البشر مشاهدةً وحضورًا، وهم أصحاب الأنبياء عليهم السلام، ويعايش غيرهم آثاره مع الحبِّ والشَّوق والتلهُّف للقاءٍ قادمٍ يُرجَىٰ في الآخرة، وهذا الاتصال من أعظم الجمال، إذ يصل الأنبياء إلىٰ أعلىٰ درجات الكمال البشري، والنُّفوس مجبولة علىٰ حب الكمال واستحسانه والتعلُّق به، فقد جمع الله تعالىٰ للأنبياء جمال السِّيرة، وجمال السريرة، وجمال الصُّورة والأخلاق، فتتعلَّق بهم النُّفوس أيَّما تعلُّق.

وفي الأنبياء معنىٰ آخر يُهيِّجُ المحبة؛ وهو: أنَّهم سبب وصول نعمة الوحي إلينا، وهم سبب هدايتنا، والإنسان مجبولٌ علىٰ محبَّة من أحسن إليه.

جمال الوحي:

الوحي عناية من الله سبحانه بالبشر؛ لأنَّه لا يوجِّهُهم ويرشِدُهم فحسب؛ بل يثبِّتُهم، وقد كان القرآن ينزل بحسب الأحداث، يُثَبِّتُ المؤمنين علىٰ ما هم عليه من الحق، ويُثْنِي عليهم بمواقفهم وصفاتهم، فتَتَشَجَّعُ النُّفوس إلىٰ مزيدٍ من البذل والسعي في رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من أجمل الجماليات في هذا الاتصال.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٨) برقم: (٥)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٣٥) برقم: (٤٤٨)، (كتاب الصلاة - باب الاستماع للقراءة).

لذلك؛ نجد أنَّ مِن أسباب حزن الصحابة الشديد عند وفاة النبي ﷺ أنّ الوحي انقطع، كما جاء في الحديث: أنَّ أبا بكر قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَىٰ الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا)[1].

لقد كان انقطاع الوحي فقدانًا لنعمة كبيرة كانت مستمرة، وإن كان الوحي باقيًا وهداياته لا تنقطع، يجد قارئه علىٰ مرِّ الزَّمَان أنَّه يخاطبه ويرشده ويثبِّته ويواسيه، إلا أنَّ لنزوله في تلك الأيام وذكره للمواقف والأحداث طعمًا خاصًّا افتقده الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد استمرَّ حرص الصحابة الشديد علىٰ الوحي بحفظهم له، وعنايتهم به، ودعوة النَّاس إليه.

ومن جمال تأثير الوحي أنَّ النبي ﷺ كان يتشوَّف له، حتىٰ إنَّه حَزِنَ عندما تأخَّر عليه في بدايات الوحي، فأنزل تعالىٰ سورة الضحىٰ يواسيه بها: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ:١-٣]، وتأمل هذا الخطاب اللطيف المليء بالمحبة، وتخيل وقعه في فؤاد النبي ﷺ، ولا عجب، فهو خليل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكل ما سبق هو من مظاهر عناية الله عزَّ وجلَّ، وعنايته بنا عناية لا تنقطع، وإلا هلكنا، وعندما يشعر الإنسان بهذه العناية بالوحي يجد لها طعمًا وحلاوة خاصة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٨) برقم: (٥)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٣٥) برقم: (٤٤٨)، (كتاب الصلاة - باب الاستماع للقراءة).

جمال الاطمئنان إلى المرجعية:

ممَّا ينبغي أن نستحضرَه في مسألة جمال هداية الوحي، الطمأنينة التي يبثها في النُّفوس حينما تشعر أنَّ هناك مرجعًا، لا يمكن أن يقع فيه خطأ في مضامينه أو في تبليغه، فهو الهداية المطلقة الواضحة البيِّنة، وهذا يُشعر الإنسان بطمأنينة وراحة، وما زال هذا الأمر لم ينقطع، فمن إعجاز الوحي أنَّه المرجع الثابت بمعانيه وقواعده وهداياتِه المستمرة المتجددة، وما فيه مِن الكنوز التي لا تنضب.

فينبغي أن نستشعر هذه النِّعمة، وهذا الجمال، ونكون في غاية الحرص علىٰ تدبر القرآن، والتمَسُّك بسُنَّة النبي ﷺ.

جمال علاقتنا بالنبي ﷺ:

ثُمَّ تأمَّل أيضًا في جمال وجود النبي ﷺ بين الناس -وهو محور أساسيٌّ في جماليات النبوة، فهو بشر مثلنا نستطيع أن نقترب منه، نرىٰ شفتيه تتحرَّكان وهو يتكلَّم، نرىٰ عينيه تبرقان وابتسامته تتلألأ، نستطيع إذا تحيَّرنا في شيء أن نسألَه، نرافِقه في صلاته وحلِّه وترحالِه، وسائر شؤونِه، ونعلم أنَّه إذا بلَّغَنَا عن الله فهو معصوم في التبليغ، وأنَّه قدوة في نفسه وفي أفعاله وصفاته وحركاته وسكناته، وأنَّه مُجابٌ في دعوته، منصورٌ من ربِّه، يضمن الإنسان باتِّباعه أنَّه اصطَفَّ مع الحق، وأنَّه يصيرُ إلىٰ الفلاح والنَّجاة في الآخرة.

هذا الشعور في غاية الجمال، ولذلك كان شرف الصُّحْبة الذي ناله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عظيمًا، لا يوازيه شرف، نالوا به من الفضل ما لم ينلْهُ غيرهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، وتأمّل في هذا الوصف الجميل:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، فالصحابة هم أعلىٰ الناس منزلة بعد الأنبياء بصحبتهم لهم، ونحن الذين لم نحظَ بهذه المنزلة في الدنيا، نسأل الله تعالىٰ أن لا يحرِمَنَا صحبة النبي ﷺ يوم القيامة.

وها هنا معنًىٰ يسرُّ المؤمن بجماله، وهو أنَّ مَنْ حُرِمَ هذا الجانب من الجمال فإنَّه يستطيع أن يصل إلىٰ شيء منه، من باب الخبر عن النبي ﷺ، وتأمُّل صفاته، ودراسة سيرته، فيعيش مع سيرة النبي ﷺ بوجدانه وإن لم يكن معه بجسده، ويزداد شوقه إلىٰ لقياه في الآخرة ومرافقته، فيكون ذلك محفِّزًا علىٰ بلوغ هذه الغاية، وخاصة عندما يعلم أنَّ النبي ﷺ -وهو في ذلك الزَّمَان مع تلك الكوكبة من الصحابة- كان يشتاق لهؤلاء الذين سيأتون بعده، يؤمنون به ولم يروه، فآمنوا به إيمان غيب، إيمانًا فيه يقينٌ، وهو يقينٌ تطلَّب مزيدًا من المجاهدة حتىٰ يصل الإنسان إليه، فيقول النبي ﷺ: (وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي، قَالَ: فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَوَلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي)[1]، فاشتاق لهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

جمال اليقين بالنبوة:

عندما يُلِمُّ الإنسان بسيرة النبي ﷺ، ويرىٰ كمال أخلاقه، وكمال مضامين ما يدعو إليه؛ فإنَّه يجد في قلبه جمالًا آخر، هو جمال اليقين، فجمال النبوة مِن بوابات

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٣٨) برقم: (١٢٧٥٩)، (مسند أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

اليقين الكبرىٰ، فإذا كان العقل قد يتحيَّر في بعض الحقائق الغيبية وغيرها ممَّا قد تَخْفَىٰ حِكْمَتُه، فالنبوة تأتي بأدلةٍ صريحة تدل علىٰ ثبوتها في ذاتها، وأدلةٍ صريحة علىٰ تفاصيل هذا الغيب الذي تتشَوَّفُ النُّفوس للتعرُّف عليه بتفاصيله، وهذا يعطي الإنسان يقينًا وثباتًا ووضوحًا في رؤيته، وتقوم عنده مرجعية واضحة؛ لتكوين التصوُّرات عن هذا الوجود، وعمَّا يجب أن يكون في هذه الحياة وعمَّا ستنتهي إليه، وحتىٰ عن معايير الأخلاق والتصرفات والأحكام.

جمال نبينا محمد ﷺ:

عندما نقترب من النبي ﷺ أكثر، نجد الجمال في الخِلْقَة والصُّورة، كما قال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة النبي ﷺ، أنَّه كان: (أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلَا بِالْقَصِيرِ)[1]، فهو معتدل الخِلْقَة، عندما تراه تألَف صورته وتستحسِنها، لا تجد فيها شيئًا تستنكره.

وقال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعًا، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ -وهي هيئة حسنة في الرِّجال- لَهُ شَعَرٌ يَبْلُغُ شَحْمَةَ أُذُنِهِ، رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ، لَمْ أَرَ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ)[2].

وقال أبو الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف النبي ﷺ: (كَانَ أَبْيَضَ مَلِيحَ الْوَجْهِ)[3]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٨٨) برقم: (٣٥٤٩)، (كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٨٨) برقم: (٣٥٥١)، (كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ)، ومسلم في صحيحه (٧/ ٨٣) برقم: (٢٣٣٧)، (كتاب الفضائل - باب في صفة النبي ﷺ).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٨٤) برقم: (٢٣٤٠)، (كتاب الفضائل - باب كان النبي ﷺ أبيض مليح الوجه).

وقد وصفه أكثر من صحابيٍّ وصحابيةٍ بأن وجهه كالقمر[1].

ويزيد ﷺ علىٰ ذلك الجمال جمالًا بابتسامته، فقد كان ﷺ أكثر النَّاس تبسمًا، قال جرير البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي)[2]، فلم يكن النبي ﷺ عابسًا، بل كان طلق الوجه مبتسمًا، يظن كل من رآه أنَّه أحب النَّاس إليه من حُسْنِ استقباله له.

هذا كله في جمال الصورة، وفي الشمائل النبوية كثير من هذا، لكن ينبغي أن ننظر إلىٰ أمر آخر، وهو جمال السريرة والأخلاق، وقد أوجز الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك وأطنَبوا، أوجزت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إيجازًا عظيمًا؛ فقالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)[3]، وقد ورد من صفاته ومواقفه ما تطير له العقول تعجبًا منه ﷺ.

بلغ من الكمال في الأخلاق ما لم يسبق إليه بشر، فقد كان ﷺ كما يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ)[4]، فإذا حمي الوطيس احتمىٰ الصحابة برسول الله ﷺ كما ورد عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: (لَقَدْ

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٩) برقم: (٣٥٥٦)، (كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ)، وصحيح مسلم ٧/ ٨٦) برقم: (٢٣٤٤)، (كتاب الفضائل - باب شيبة ﷺ)، جامع الترمذي (٤/ ٥٠٣) برقم: (٢٨١١)، (أبواب الأدب عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في الرخصة في لبس الحمرة للرجال).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٦٥) برقم: (٣٠٣٥)، (كتاب الجهاد والسير - باب من لا يثبت على الخيل)، ومسلم في صحيحه (٧/ ١٥٧) برقم: (٢٤٧٥)، (كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/ ١٤٨-١٤٩) برقم: (٢٤٦٠١)، (مسند الصديقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٧٢) برقم: (٢٣٠٧)، (كتاب الفضائل - باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدُّمه للحرب).

رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَىٰ الْعَدُوِّ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا)[1]، وكان ﷺ أصبر الناس وأحلمَهم حتىٰ علىٰ من يجفو معه ويقسو عليه، فكان ﷺ يعامله بالحلم والعفو والصفح، وكلنا يعرف موقفه في فتح مكة عندما دخل متواضعًا مطأطِئًا رأسه، ثُمَّ عفا عن أهلها بعد كلِّ الأذىٰ والتعذيب والإخراج.

هذه الأخلاق لا يمكن أن تصدر من شخص ينتصر لنفسه أو يريد شيئًا غير أن يُرضِي الله، ويحقق رسالته، ويبلِّغ عنه.

هذه الأخلاق هي من أعظم دلائل نبوته ﷺ، وقد جَعَلَتْ كثيرًا من الصحابة يبادر إلىٰ الإيمان به في بداية رسالته قبل سماع القرآن، أو إدراك بعض المعجزات المتنوعة التي ظهرت بعد ذلك.

ومن جمال أخلاقه ﷺ: رحمته بالخلق، وبرُّه ووفاؤه، وتواضعه ﷺ، ويزيد الإعجاب بهذا التواضع إذا استحضرنا منزلته في قلوب الناس، حتىٰ إنَّهم يقتتلون علىٰ وضوئه، وتجري الدنيا بين يديه ولكنَّه يزهد فيها، وتجد أصحابه يفدونه بدمائهم وأرواحهم، ومع عِظَم منزلته، فقد كان بعضهم يدخل مجلسه فيقول: (أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟)[2]، من شدة تواضعه، وعدم تميُّزه عمَّن عنده، ويرتعد رجل عندما عرف أنَّه رسول الله فيقول: (هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ)[3]، والقديد هو: اللحم المجَفَّف.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٨١) برقم: (٦٥٤)، (مسند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

(٢) انظر: صحيح البخاري (١/ ٢٢) برقم: (٦٣)، (كتاب العلم - باب ما جاء في العلم).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ٤٣٠) برقم: (٣٤١٩)، (أبواب الأطعمة - باب القديد).

وقد صلَّىٰ مرة قاعدًا لجرح في جسده الشريف، فأراد رجال أن يصلوا خلفه قيامًا، فأشار لهم أن يجلسوا، ثم قال لهم بعد الصلاة: (إِنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ، يَقُومُونَ عَلَىٰ مُلُوكِهِمْ)[1]، فأي تواضعٍ هذا!

وقد سمعوا مرَّة صوتًا؛ فخافوا أن يكون هناك مكروه، فخرجوا ليتفقَّدوا الأمر، فإذا رسول الله ﷺ راجع قد سبقهم بشجاعته مطمئنًا لهم قائلًا: (لَنْ تُرَاعُوا)[2].

ويكفينا وصف أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له عندما رجع من الغار، وقد خَشِيَ علىٰ نفسه، فقالت: (كَلَّا وَالله مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ)[3].

ولذلك استدل هرقل علىٰ نبوته بصفاته وأخلاقه عندما سأل أبا سفيان: (فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا)، وبعد ما سمع ما يدعو إليه ﷺ من الصلاة والصدقة والصلة والعفاف وعبادة الله وحده ونبذ الأوثان، قال: (فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)[4]، فكانت أخلاقه من أعظم دلائل نبوته، ولا شك أنَّ هذه الكمالات البشرية هي من أجمل ما يمكن أن يراه الإنسان، أو حتىٰ يسمع عنه وإن لم يره.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٩) برقم: (٤١٣)، (كتاب الصلاة - باب ائتمام المأموم بالإمام).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٣) برقم: (٦٠٣٣)، (كتاب الأدب - باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧) برقم: (٣)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في صحيحه (١/ ٩٧) برقم: (١٦٠)، (كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٨) برقم: (٧)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله).

وهذه الجماليات في أخلاق النبي ﷺ هي من المتواترات التي لا تقبل أدنىٰ تشكيك؛ لكثرة ما ورد في ذلك بألفاظ متنوعة، كلها تجتمع علىٰ هذه المعاني السامية العظيمة، وقد امتلأت الدنيا بسيرة عدله وفضله ورحمته وجوده ووفائه وطيب معشره وتقواه وزهده وورعه، حتىٰ إنَّه مِن زهده تُوفي ودرعه مرهونة في قبضة من طعام.

كُلُّ الفَضَائِلِ فِي الأَنَامِ تَفَرَّعَتْ ... مِنْ نَهْرِ سُنَّةِ سَيِّدِ الأَقْوَامِ

فهل تعلمنا كمال الأخلاق إلا منه ﷺ؟ وصدق الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

إذا استشعرنا هذا الكمال الذي بلغ ﷺ الذروةَ فيه، لم نستغرب أنَّه خليل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان أحب الخلق لخير الخلق بعد الأنبياء، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكانت أصدق المشاعر لبشر هي المشاعر التي تتَّجه إليه ﷺ، وأعظم التَّضحيات هي التي تُبْذَلُ في نُصْرَتِه، وأعظم اتِّباعٍ يمكن أن يحصل وأكمله هو اتِّباعه ﷺ، وهذا هو الذي يُصدِّق تلك المحبة ويثبتها.

والاقتداء به ﷺ من جماليات النبوة؛ فما أجمل أن يكون قدوتك بهذا الكمال، مع كون الاقتداء به ممكنًا؛ لأنَّه بشرٌ أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكي نقتدي به، وقد جاء بالحنيفيَّة السمحة الميسَّرة، فجمع إمكان ويسر الاقتداء مع علوِّ ما نقتدي به فيه، مع كونه بلغ الذِّروة في تمثيل هذا الجمال.

ومن جمال اتباع النبي ﷺ: علمك أنَّك علىٰ المحجة البيضاء، يقول ﷺ: (قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ)[1]، وهذا الوضوح من الأشياء التي تستحسِنها النُّفوس وتطمئن إليها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٢٩) برقم: (٤٥)، (أبواب السنة - باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين)، وأحمد في مسنده (٢٨/ ٣٦٧) برقم: (١٧١٤٢)، (مسند الشاميين - حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ).

جمال المرافقة في الآخرة:

أمَّا مرافقة النبي ﷺ في الآخرة فمن أجمل الجماليات، حيث سيكون له ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، وسينال الوسيلة التي هي أعظم منزلة يمكن أن ينالها إنسان، وسيُشَفَّع في الخلائق حتىٰ يقضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بينهم، فعندما تكون من أتباع هذا النبي ﷺ ستكون تحت لوائه حتىٰ يستقر بك الحال رفيقًا له في جنات النعيم، فهذا أجمل ما يمكن أن يصل إليه الإنسان؛ فما أجمل لقاء الأنبياء ومرافقتهم! وهم الذين تولَّوا أعظم مهمة يمكن أن يتولاها بشر، وهي التبليغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله أن يجعلنا ممن صدق في محبة النبي ﷺ، واتَّبع هديه، ورافقه في جنات النعيم.

الرحلة الخامسة

«جماليات الأخلاق في الإسلام

من جماليات الإسلام الظاهرة عنايته البالغة بالأخلاق، ومن الأحاديث التي تتبادر إلىٰ الذهن هنا قوله ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)[1]، فهذا الحديث يوحي بأسلوب الحصر بمركزية هذه الأخلاق، ويُبيِّن أنَّ رسالة النبي ﷺ جاءت بتتميم الأخلاق لا بالاهتمام بأصولها فقط، وفي ذلك أبلغ إشارة إلىٰ عِظَم هذه العناية.

ولهذه العناية الربَّانيَّة مظاهر كثيرة، تبدأ من تأسيس الأخلاق علىٰ الفطرة، وتزدهر في تفاصيل نظام الأخلاق الشامل المتكامل، وتبهر الناظر في توازنات تفاصيلها، وتأخذ بلبِّه وهو يرىٰ ارتباطاتها بأصول وفروع الشريعة العظيمة، وإسنادها بنظام تربوي تعبُّدي كثيف، ويقف متعجِّبًا من وضوح معياريَّتها، فتعالوا نُحَلِّق مع جمال هذه الجُمَل.

جمال التأسيس الربَّاني.

من جمال الأخلاق في الإسلام أنَّها مبنيَّة علىٰ الفطرة، فتَصوُّرنا للأخلاق ينبني علىٰ اعتقادنا أنَّها كمال، جعلَ اللهُ النُّفوس تميل إليه وتستحسنه، وهذا الربط يُؤَكِّد رسوخ الأخلاق وأنَّها تصلح أن تكون معايير عامة للكمال يتَّصف بها الإنسان، ويتَّسق سلوكُه معها، فإذا انحرف عنها عددنا ذلك انحرافًا عن الفطرة والكمال.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٥/ ٣٦٤) برقم: (٨٩٤٩)، (القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة).

وحتىٰ مَن لا يمتثل بعض الأخلاق الحسنة فإنَّه لا يستطيع أن يتخلَّص من شعور استحسانها وقبح مخالفتها ما دامت فطرته سليمة، إلا مَن انحرف عن الفطرة أو تنكَّر لها، فإنَّ أساس الأخلاق عنده يضعف، وحتىٰ لو مارسها فهي غير راسخة، وقد يتنكَّر لها ولأهمِّيَّتها، فتضعف عنده إلزاميتها، فإذا كان يتنكَّر لفطرية الأخلاق وكون مصدرها هو الله سبحانه، فما الذي سيلزمه بها بعد ذلك غير أمور نسبية يمكن أن تُنازع وتضعف وتتبدَّل، وهذا يفسر كثيرًا من الانحرافات الجارفة عن الأخلاق الفطرية التي نشاهدها اليوم، نظرًا لانتشار الرؤىٰ المادية للوجود بعيدًا عن قيمة الفطرة والارتباط بالخالق سبحانه.

لقد وجد اليوم ممن صَدَّ عن الشرائع مَن يميل بالأخلاق عن جوهرها ومضامينها الفطرية، فيجعل لها معايير تحيد بها عن قيمتها الذاتية إلىٰ التوظيف النفعي لها، فيجعل المنفعة النسبية معيارًا للأخلاق، وهذا يفتح باب الظلم بنفع نفسه أو فئته علىٰ حساب الآخرين، ويُسبِّب سيولة المعايير بل انعدامها، فتنهار القِيَم وتتلاشي الضوابط، ومن هنا يجد العاقل أنَّ الإيمان بالخالق ضرورة للأخلاق والصلاح البشري، وإلا كُنَّا في جحيم وتنكَّرنا لما دلَّت عليه عقولنا من ضرورة الأخلاق، وهو أمر فطري راسخ في نفوس البشر لا ينكره إلا مكابر.

ومن جمال هذا التأسيس ما يبرز إذا استُحْضِرَت صفات الله تعالىٰ الذي أوجد هذه الفطرة، فهو الحكيم العليم الرحيم، ومن حكمته ورحمته أنْ جعل لنا هذه الأُسس حتىٰ نعرف كيف نعيش ونتعامل ونضبط تصرفاتنا، وإلا أهلك بعضنا بعضًا، وانفلتنا دون أي ردع أو قيود في الإفساد والأنانية وغيرها من مساوئ الأخلاق وآثارها.

فالأخلاق لما كانت ربَّانية المصدر، كان من جمالها أن تظهر آثار صفاته سبحانه فيها، فالأخلاق إذًا لها شأن عظيم، ونظام بديع، وفيها الحكمة والرحمة،

وفيها الكمال، فهي من عند الله تعالىٰ، وقد جاء النبي ﷺ بتتميمها، وممَّا سبق نعلم أنَّنَا سنجد لهذا الكمال آثارًا تظهر في خصائص هذه الأخلاق ونظامها في الإسلام.

ومَن كان له أدنىٰ نظر في فلسفات الأخلاق البشرية، فسيرىٰ عِظَم الفَرْق، ويدرك أنَّ الكمال قضية مشهودة، ففي نظريات الأخلاق البشرية سمة نقص عامة هي الاختزال؛ فكل نظرية تركز علىٰ جانب دون غيره، فبعضها يركِّز علىٰ العواقب لمعرفة الأخلاق، ويُهمل قيمتها في ذاتها فيضعفها، وبعضها ينظر لفضيلتها في ذاتها، ويهدر اعتبار العواقب، وبعضها ينظر لها مِن زاوية أشخاص يتَّصفون بها ويحبسها في هذا المنظور، وكأنَّها ليست قيمًا عظيمة تُدرك بالفطرة، وتَتجرد في العقل عن التطبيقات البشرية.

وإذا أتيت للإسلام، فستجد أنَّه عدَّ الأخلاق فطرية، وجاء بتوكيدها وتتميمها وتفصيلها، وعظَّمَ مع ذلك من شأن القدوات في الأخلاق، وفي مقدَّمهم الأنبياء، وعدَّ العواقب ضمن نظام مقاصده وقواعده الفقهية، دون أن يخلَّ بالقيمة الذاتية للأخلاق، وبهذا ترتسم في الإسلام من هذا كله صورة بديعة الجمال متكاملة الأجزاء.

جمال التفصيل:

إنَّ الشرع هو الرِّسالة التي جاء بها الرُّسل مع الأدلة الواضحة الجلية علىٰ أنَّه من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومصدره الربَّاني الثابت بأدلة الرِّسالة يُؤَكِّد المضامين التي جاءت في الوحي، فإذا جاء الوحي بتصديق خُلُقٍ معيَّن؛ فإنَّ الشك يرتفع عنه، مع أنَّ الفطرة وحدها تكفي في معرفة أسس الأخلاق، ولكن الشرائع تحمي من انحرافات الناس عن الفطرة وتردهم إذا انحرفوا.

ولا يقف جمال الأخلاق في الإسلام عند ترسيخها وشموليتها وترابطها، بل أتىٰ الإسلام بنظام تفصيلي للأخلاق، وتشريعاتٍ تُحقِّقه علىٰ وجه التفصيل، فالعقل يدرك الأخلاق أصولًا وجُمَلًا عامة، ثُمَّ يقع التنازع بين العقول كلَّما اتجهنا للتفصيل في تطبيقات الأخلاق في مواقف الحياة، خاصة إذا حصل نوعٌ من التعارض بينها في بعض المواقف، فلا يمكن أن نجد معيارًا في مثل هذا يفصل النزاع إلا الوحي، وما فيه من تفصيل الحكم الإلهي.

فالفطرة إذًا أساس، ثُمَّ الشرع يُؤَكِّد ويُفَصِّل ويُكَمِّل؛ لأنَّ أسس الأخلاق إجمالية عامة، ولا بُدَّ من التفصيل الذي لا يخضع لنسبية العقل وقصوره وارتباكه وتفاوته كلَّما اتَّجه للتفصيل، كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (النَّاس لا يفصل بينهم النِّزَاع إلا كتاب مُنزل مِن السَّماء، وإذا رُدُّوا إلىٰ عقولهم فلكل واحدٍ منهم عقل)[1].

وهذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ظاهرٌ لمن تأمَّل واقع مَن يحاولون الاستغناء عن الشرائع، فإنَّهم يتخَبَّطُون في الأخلاق، فقد تجد -مثلًا- مَن يرىٰ ترك علاج كبار السن إذا تدهورت صحتهم، ويُبَرِّر ذلك بأنَّه رحمة بهم، وفي المقابل تجد مَن يُقرِّر أنَّ الرحمة هي في إنقاذهم وحفظ حياتهم، ويستطيع كلٌّ منهما أن يسوق تبريرات متضاربة لإثبات أنَّ ما يقوله هو الرحمة! وقل مثل ذلك في إجهاض الأجنة والحالات التي يكون مقبولًا فيها، ولا تجد في ذلك شيئًا يمكن أن يعوِّل عليه أحد خارج تفصيلات الشرع.

وقل مثل ذلك في قيمة العدل، وقد ثارت الحيرة مؤخرًا في قضية التزاحم علىٰ أجهزة التنفُّس مع كثرة حالات فشل التنفس بسبب فيروس كورونا المستجد، وكثُرَ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٩).

الكلام خارج إطار الدين في مسائل؛ مثل: تقديم الشباب علىٰ كبار السن والمعاقين عقليًّا، وكل من يتكلَّم يُقرِّر أنَّه يُريد العدل، رغم التضارب في مضامين الكلام.

وهذا كله يُظهر أنَّه لا بُدَّ من الشرع المنزَّل حتىٰ يَفْصِل في الصواب الذي يُحقِّقُ الخُلُق الحميد ويُفَصِّله، ولن تجد هذا إلا في الإسلام، وخصائص الأخلاق الكثيرة فيه تُبرِز كمال الشريعة، وتؤكد في نفوسنا اليقين بأنَّها من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

جمال الشمول والتكامل:

ومن جمال الأخلاق في الإسلام أنَّها مترابطة مع جوانبه الأخرىٰ، فالمعاملة مع الله تعالىٰ فيها أخلاق، والمعاملة مع النَّفس والآخرين كذلك، والأحكام مترابطة من جهة غاياتها ومعاييرها بالأخلاق، ولذا كان من جمال الأخلاق في الإسلام أنَّها مرتبطة بأخذ الدين بشمول.

والأخلاق تطلق علىٰ طبع الانسان الذي يتصف به باطنه[1]، ولا حاجة في الإسلام لفَصْلِ جزءٍ من الأحكام التي تنظم السلوك تحت اسم الأخلاقيات، كما هو الحال في الثقافات العلمانية، التي تضطر لذلك؛ لأنَّها لا تستند إلىٰ المصدر الربَّاني فتخضع له، لذا فإنَّ الخضوع عندها يكون للقوانين الملزِمة، ثم يبقىٰ ما سواها أخلاقًا أو أخلاقيات.

ومن هنا تبرز خاصية عظيمة للأخلاق في الإسلام، وهي أنَّها ممتزجة بالتشريع الذي ينقسم إلىٰ مراتب منها: الواجب، والمستحب... وغير ذلك، ويبقىٰ بذلك نظامًا واحدًا موحِّدًا في مصدره وغاياته، متناسقًا فيما بينه، وهذه من سمات الجمال الكبرىٰ.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٧٠).

وليتَّضح لك عظم أثر هذه الخاصية، تأمَّل في قاعدة الفروض الكفائية، وهي الفروض التي إن قام بها بعض المسلمين سقطت عن الباقين، وإلا بقي الجميع مخاطَبِين بها، وقد تتعيَّن علىٰ البعض في بعض الحالات؛ فمثلًا: لو رأيت إنسانًا يغرق، وأنت قادر علىٰ إنقاذه، فإنَّ إنقاذه فرض كفاية علىٰ القادرين، أمَّا إذا لم يكن غيرك فيلزمك ذلك بعينك، ولا يسُوغ لك التهرُّب بحجَّة أنَّ إنقاذ الغرقىٰ ليست وظيفتك التي تعمل بها بمقابل، بل يلزمك ذلك الإنقاذ لا من باب المروءة المستحبَّة فقط، بل لأنَّه قد صار فرضًا عليك، لدرجة أنَّك قد تُعَدُّ جانيًا بتركه في بعض الصور، وتتعرَّض للعقوبة.

فالقواعد التي تنظم سلوكياتنا في الإسلام هي نفسها مظاهر أخلاق ترتبط بالقيم، وتهدف إلىٰ مقاصدَ وغاياتٍ وحِكَمٍ جليلة، فالأخلاق في الإسلام تسري في الشريعة سريان الروح في الجسد، والمسلم في سلوكه يراعي ضميره الذي يربطه بتلك القيم العالية، ولا يكون رادعه الخوف مِن العقاب الدنيوي وحده، بل يستحضر أنَّه إذا غاب رقيب الأرض، فإنَّ في قلبه تعظيم الربِّ الرقيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

جمال اتزان الأخلاق:

تجد في أفراد النَّاس وجماعاتهم من ينزع إلىٰ قيمة الشجاعة ويعظِّمها، وقد يرجع ذلك لعِظَم نفع تلك القيمة في بيئة اجتماعية معيَّنة، وتلاحظ أنَّ هذا التعظيم ينتج عنه اختلالات في توازن الأخذ بالأخلاق والقيم، لكنَّك إذا جئت للإسلام، وجدت فيه شمولًا لكل القيم، فتجد الحديث عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والأخلاق التي تتعلق بالتعامل معه، وتجد الحديث عن الأخلاق التي تتعلق بتعامل الإنسان مع نفسه، حتىٰ لو كان منفردًا، وتجد الأخلاق مع الناس والتعامل معهم، كلها حاضرة

وبينها تناسق وتوازن، وانظر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩].

فثمَّة توازن يطلب، وهكذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف:٣١]، فليس المطلوب إهمال الدنيا تمامًا ولا الإفراط فيها.

هذه التوازنات كثيرًا ما تُفْقَد عند البشر، فتجدهم يغلون في قيمٍ دون أخرىٰ، والنبي ﷺ وهو القدوة العملية ضبط هذه القضايا بخلقه وبسلوكه، وصحَّحَ ما حصل في زمنه، فأمر بحلِّ الحبل الذي شُدَّ في المسجد لتتعلَّق به زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا فترت في صلاتها[1]، وصدَّق ﷺ قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)[2].

وهذا التوازن ظاهر في عموم الشريعة، حتىٰ استخرج العلماء من استقرائها أنَّها ترجع لخمسة أصول؛ هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، فكلُّ ذلك مقصود شرعًا، ولا يسوغ للإنسان أن يذهب في الشجاعة كلَّ مذهب، فلا يبالي بحرمة النُّفوس، وقُلْ مثل ذلك في إنفاق المال كرمًا، ولذلك يُقال: إنَّ بين بعض الأخلاق الحميدة والذميمة شعرة.

ويزيد هذه التوازنات جمالًا أنَّها منضبطة بمعايير إجماليَّة ومفصَّلة، ومن مواضع الاهتمام بهذه القواعد: علم المقاصد الشرعية، وعلم القواعد الفقهية، فالمقاصد متنوعة متفاوتة في أهميتها، وهي راجعة إلىٰ مراتب متفاوتة، هي:

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٢/ ٥٣-٥٤) برقم: (١١٥٠)، (أبواب التهجد - باب ما يكره من التشديد في العبادة)، وصحيح مسلم (٢/ ١٨٩) برقم: (٧٨٤)، (كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٨) برقم: (١٩٦٨)، (كتاب الصوم - باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع).

- **الضروريات**: التي لا يُستغنىٰ عنها إلا بحصول هلاك وتهارج.
- **والحاجيات**: التي بفقدها يقع الحرج والمشقَّة الشديدة.
- **والتحسينات**: التي تكون من باب التزيين والتحسين والتكميل للمحاسن، وهذه المرتبة بذاتها تبرز عظم اهتمام الشريعة بالكمالات وتتميم مكارم الأخلاق.

وقد بنيت الشريعة علىٰ هذه المقاصد، وبنيت علىٰ تقديم الأهم نوعًا ومرتبة عند التعارض، ويبرز ذلك في الاستثناءات والرُّخص وغيرها من الأحكام التي تبرز فيها الموازنة عند وقوع التعارضات.

جمال شمول ما تتعلَّق به الأخلاق:

الأخلاق سجيَّة ملازمة للمسلم، لا تقتصر علىٰ التعامل مع الناس، بل تتعلَّق بالتعامل مع الله تعالىٰ، وهذا من الشمول الواجب الذي يعدُّ تركه أعلىٰ درجات القُبْح، والوفاء به أعلىٰ درجات الوفاء وأجملها؛ فإنَّ الله تعالىٰ هو الحميد المنعم الرب الكريم المحسن، وأعظم العدل أن يوحَّد في ذاته وأسمائه وصفاته وألوهيته، وأعظم الظلم أن يجعل العبد له ندًّا في ربوبيته أو ألوهيته.

ومن جمال هذا المتعلَّق، أنَّ الأخلاق في الإسلام أعظم من أن تحصر في حقوق الناس، وكمالَها أعظم من أن يُحبَس في سجن الدنيا، بخلاف مَن يطرح الأخلاق بصيغة دنيوية، ويجعلها نزعة إنسانوية تنطلق من تأليه الإنسان وجعله مركز الوجود، وتنظر له بعيدًا عن موقفه من عبودية خالقه وأداء حقه سبحانه، وهذا تشويه للأخلاق وحطٌّ لها، وإذا تمكَّنت هذه النزعة من الإنسان فسينحط عقله عن إدراك حسن التوحيد والعبودية، ويستمرِئ قبح الكفر والشرك، ويراها مجرد اختيارات شخصية.

لقد جاء الإسلام شاملًا في إصلاحه للدين والدنيا، وعنايته بحقِّ الله تعالىٰ، وحقِّ النفس، وحقِّ الناس، ونظَّم كل ذلك في سلك واحد يعيش به الإنسان متَّحدَ الوجهة، مُجتمِعَ القلب، واضحِ الرؤية، قويَّ الحجة، وما أجمل هذا الشمول وما أعظم أثره في قوَّة القلب وطمأنينة النفس واستقامة الحياة في الدنيا والبرزخ والآخرة.

وقد سبق أن تكلَّمنا عن جمال تصوُّرات الوجود في الإسلام، وجمال العلاقة بالله تعالىٰ، وجمال النبوَّة بما يغني عن الإعادة، ولكن تجدر الإشارة هنا إلىٰ أمر متصل عظيم الأثر علىٰ الأخلاق، وهو أنَّ المسلم مع كونه مفطورًا كغيره من النَّاس علىٰ حبِّ الكمال، إلا أنَّ الكمال لا يكون بإطلاقٍ إلا لله تعالىٰ، وهو المستحقُّ وحده للكمال لذاته، وقد اعتنىٰ الإسلام بترسيخ هذا المفهوم للكمال في سورة الفاتحة وغيرها من الأذكار، ليُرسِّخ في المسلم الانجذابَ إلىٰ الكمال؛ لأنَّها قضية مركزية في وجدانه، فيسعىٰ إلىٰ الكمال اللائق بالمخلوق، مع سعيه قبل ذلك للاتصال بمن له الكمال المطلق سبحانه، فينجذب للأخلاق الفاضلة حُبًّا للكمال، وتقرُّبًا من ذي الكمال والجلال سبحانه إذا ابتغىٰ بها وجهه، وهذا لا يمكن أن يوجد إلا بمثل هذه التصوُّرات والوجدانيات التي يغرسها الإسلام في النُّفوس.

ومن شمول الإسلام: عنايته بالأخلاق مع النفس، فالمسلم يعرف أنَّ نفسه ناقصة تحتاج إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، ويعلم أنَّ الإسلام جاء بتزكية النُّفوس، وأنَّ فلاحه في ذلك، فلا بُدَّ من الإحسان للنفس بسوقها إلىٰ مولاها سبحانه بالامتثال، فيرتقي بذلك للكمال ناجيًا من ظلم نفسه، فالعدل مع النفس أصل عظيم في الإسلام، وليس من العدل مع النفس أن توردها المهالك باتباعها أهوائها، بل العدل أن تحافظ عليها وأن تضعها حيث أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما خلقك: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

ومن مظاهر شمول الأخلاق في الإسلام: تعدُّدها وتنوُّعها، فهناك العدل والرحمة والإحسان والعطف، وهناك الشجاعة والتواضع والكرم والإيثار، وغير ذلك كثير، ولو أخذنا أيًّا من هذه الأخلاق، ونظرنا فيما ورد فيها من نصوص شرعية؛ لوجدنا كَمًّا هائلًا، مع توفُّر المثال النبوي في الجانب التطبيقي، ويكفي أن ينظر الواحد منَّا في موسوعات الأخلاق؛ مثل: «موسوعة نضرة النعيم في أخلاق النبي الكريم ﷺ»؛ ليُدرك هذا الثراء العظيم في تشييد الأخلاق، وهدم ما يخالفها، وبيان جميع ما يتعلَّق بها.

جمال العمق:

ومع شمول الأخلاق ففيها قوَّة تنبع من العقيدة، فهي التي تجعل الإنسان يتبنَّىٰ هذه الأخلاق بقوة، مع كون بعضها قد يقتضي التضحية بالمال، أو النفس، وإلا لو فكَّر الإنسان في نفسه لدار حول ذاته وتبنَّىٰ ما يحقِّق مصلحته الشخصية بالمفهوم الفردي، أمَّا إذا اعتقد بأنَّه عبد يعيش لله، ويحتسب ما يبذله لله سبحانه الذي يحبُّ معالي الأمور، وآمن أنَّ هناك دارَ جزاءٍ فيها العِوَض والمزيد لمن أحسن، فإنَّه سينبعث للخير بقوَّة، ويتفانىٰ في حُسْن الخلق.

وممَّا يُعمِّق الأخلاق: قضية الابتلاء، فالمؤمن يُبتلىٰ تمحيصًا واختبارًا، فتظهر حقيقة دعواه، هل هي دعوىٰ فارغة ليس لها جذور، أم أنَّها حقيقةٌ راسخة قوية الأصول، ومع الابتلاء يقوَىٰ لجوء المؤمن لله، ويبدأ في محاسبة نفسه واستصلاحها بقوَّة، فيزيده ذلك كمالًا في عبوديَّته وخُلُقه.

وممَّا يُعمِّق الأخلاق: معرفة حقيقة الدنيا كما بيَّنها الإسلام، فإذا علم المؤمن أنَّ الدنيا معبر للآخرة، وأنَّ ما فيها زائل، وأنَّ الباقية هي الدَّار الأُخرىٰ التي تنتظر الإنسان، وفيها ثوابه الجزيل، فإنَّ ذلك سيقوي امتثاله للأخلاق.

وممَّا يُعمِّق الأخلاق: عقيدة القضاء والقَدَر؛ لأنَّك إذا علمت أنَّ التصرف بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لجأت إليه وتوكَّلْتَ عليه، فتحفظ أخلاقك من الضياع بسبب الضجر ممَّا يحصل في الدنيا من ابتلاءات، فهذه الابتلاءات تتَّسِق مع حقيقة الدنيا، وفيها حكمة وخير، وستؤول إلىٰ خير، وعند ذلك تختلف المعادلة بحضور أبعاد أخرىٰ؛ مثل: التوكل، وإحسان الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكل هذا ينعكس علىٰ امتثال الأخلاق.

جمال خطاب الأخلاق في الإسلام:

مزج الإسلام في خطابه الأخلاق والأوامر والنواهي والتصوُّرات الاعتقادية مزجًا بديعًا متناسقًا، وانظر مثلًا قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ

مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٢٣-٣٨].

فتأمَّل كيف تتكلَّم هذه الآيات في سياق واحد عن توحيدِ الله تعالىٰ بالعبادة، وبرِّ الوالدين، وعلمِ الله بما في النُّفوس، ومغفرتِه لمن يرجع إليه، وإيتاء ذوي القربىٰ والمساكين وابن السبيل، وتحريم التبذير، والتنفير من الشيطان، وإحسان القول، والاعتدال في الإنفاق، وكون الرزق بيد الله، وأنَّه خبير بصير بعباده، ثُمَّ عن تجنُّبِ الظلم، وسوء الظن بالله بقتل الأولاد خشية الإملاق، وتحريم الاقتراب من الزنا وتبشيعه، وتحريم قتل النُّفوس بغير حق، وتشريع القصاص مع حرمة الاعتداء فيه، والوصية بمال اليتيم، والوفاء بالعهد والكيل، وعدم القول بغير علم والتواضع، وغير ذلك ممَّا تضمنته الآيات من الوصايا والتصوُّرات.

إنَّ سَوْق هذا الكم من الأخلاق والوصايا والتصوُّرات والوعظ والتشريع في سياق واحد يُعَدُّ من أعاجيب الخطاب القرآني، ولا يكون مثله في خطاب النَّاس إلا ويضطرب الخطاب ويفقد سلاسة الانتقال بين فقراته، ويشتت السامع ويُشعرِه بالنُّفْرَةِ من الأسلوب! لكن القرآن ينظم كل ذلك في سلك واحد، مع جمال وقع الآيات الصوتي، وأَخْذِهَا بمجامع القلب من وصيةٍ إلىٰ تصوُّرٍ إلىٰ وعظٍ إلىٰ تحسينٍ لخُلُق وتبشيع لآخر، كل ذلك في جمال مبنىٰ وجمال معنىٰ، مع عمق في ترسيخ القضايا؛ لأنَّها تمزج بين الإقناع والربط بالمعتقد، ومخاطبة الوجدان والذوق والشعور.

جمال التربية الخُلُقية في العبادات:

ومن مزايا الأخلاق في الإسلام: أنَّ لها نظامًا عمليًّا من العبادات يسندها ويقوِّيها، فهي ليست نظامًا نظريًّا فقط، ولنأخذ الصيام مثلًا، فتأمَّل كيف يُربِّي الإنسان علىٰ خُلُق التقوىٰ والصبر والإخلاص، فالنَّفس في الصيام تُحبَس عن الانسياق مع الشهوة المباحة، فضلًا عن الشهوة المحرَّمة، لتنكفَّ عن الحرام؛ لأنَّ بناءها الخُلُقيّ اشتدَّ بالمران، كما أنَّها تتربَّىٰ علىٰ الإخلاص والعمل لأجل الله تعالىٰ، حيث لا يطلع علىٰ كمال الصيام إلا هو سبحانه، ولذلك خصَّهُ الله تعالىٰ بأنَّ جعل ثوابه متميزًا عن بقيَّة الأعمال، قال تعالىٰ في الحديث القدسي: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي)[1].

وهكذا إذا نظرتَ في الحجِّ، وتأمَّلت ما فيه من ابتلاءٍ ومشاقَّ وبذلٍ للمال وتخفُّفٍ من المباحات من اللباس والمكان المريح، إضافة للمواقف المتنوعة التي تذكِّر بالآخرة وتزهِّد في الدنيا، كل ذلك يُربِّي المؤمن ليتخلَّق بالإخلاص والصبر والإتقان والتضحية والكرم والتعاون مع الآخرين والرحمة، وقد صدق الله تعالىٰ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨].

وهكذا إذا نظرت لعبادة الجهاد في سبيل الله تعالىٰ، فهو عقبة تُجتَاز بالشجاعة والإيمان بما عند الله تعالىٰ والتوكل عليه، فيرتفع به الإنسان عن حظوظ نفسه، ويضحِّي في سبيل الله، وقد وصفه النبي ﷺ بأنَّه ذروة سنام العمل، كما جاء في الحديث[2]، وهو مرتبط بقيمة تحقيق العدل والرحمة بالمستضعفين، قال تعالىٰ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٨) برقم: (١١٥١)، (كتاب الصيام - باب فضل الصيام).

(٢) انظر: جامع الترمذي (٣/ ٢٩٠) برقم: (١٦٥٨)، (أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء أي الأعمال أفضل).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:٧٥]، فربطه بمعاني العدل والرحمة بهؤلاء المستضعفين المظلومين.

وهكذا إذا نظرت للزَّكاة والنفقات، وما فيها من بذل لما نحب، كما قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، فهي تُربِّي المسلم علىٰ التخلُّص من التعلُّق الزائد بالدُّنيا، والزهد في بعضها، ونفع غيره بذلك البعض ومواساته والتكافل معه، وهذا يُوجِد صلة التراحم والتعاون في المجتمع، فيتعاضد ويقوم بناؤه الاجتماعي، ولا يكون المال دُولَةً بين الأغنياء وحدَهم.

وهذه الفرائض تعوِّد المؤمن علىٰ الإحسان حتىٰ يصير سجية، فينطلق منها إلىٰ مزيد من التطوع، فيبلغ درجة الإحسان، وفي الحديث: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ)[1].

جمال المعيارية:

يَحثُّ الإسلام علىٰ التحلِّي بالأخلاق، ثُمَّ يُبيِّن التشريعات التي تحققها علىٰ وجه التفصيل، بالإلزام بالواجبات والحثِّ علىٰ المستحبَّات، ونفي الأخلاق السيئة بالتحريم أو الكراهة، وبهذا النظام التفصيلي نرىٰ المعايير التي يقوم بها النظام الأخلاقي بشمول واتِّزان؛ ليضْمَن هذا النظام أن تُؤْتَىٰ الأخلاق كما ينبغي، ولا يتركها لأهواء الناس فتتحوَّل إلىٰ وسيلة تخدم الأغراض الشخصية والدنيوية.

وبوجود هذه المعيارية المفصَّلة تُغلَق مداخل كبيرة للانحراف، والبشرية اليوم مع تزايد بعدها عن الدين الحقِّ تعاني علىٰ مستوىٰ القِيَم، وتفتقد الأسس والمعايير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢)، (كتاب الرقاق - باب التواضع).

التي تُبْنَىٰ عليها الأخلاق، وقد اتَّجهت إلىٰ تأليه الإنسان لذاته، واختزال وجوده في المادة والحياة الدنيا، ليبتعد بذلك عن ربِّه وإلهه الحقِّ، وينسىٰ خلقه والغاية منه ويغفل عن مصيره، ولا يرىٰ في المخلوقات أنّها سُخِّرت له؛ ليقومَ بالعبودية لله، ويجعلَ الوسائل طريقًا إليه، فيتَّسق كل شيء في الوجود أمامه، ويقوم علىٰ معنىٰ وهدفٍ وطمأنينةٍ للقلب.

والانحراف في هذا المستوىٰ وثيق الصلة بنظام الأخلاق؛ لأنَّ ترتيب القِيَم ينقلب بانقلاب النظرة الصحيحة للوجود، حين يُنْظَر للإنسان وكأنَّه أوجد نفسه واستحَقَّ كلَّ ما خُلِقَ له لذاته، بدلًا من أن ينظر بأنَّ عليه حقًّا لله تعالىٰ هو أعظم الحقوق، وأنَّ شكره بالعبودية الخالصة له أعظم العدل، وأنَّ جحوده بالكفر أو الشرك هو أعظم الظلم، وبهذا يستقيم نظام القِيَم والأخلاق وتُعرَف ترتيباتها، ودونه تختزَل وتقلَب الأخلاق وتتشوه، فيتشوَّه النَّظر إلىٰ أحكام الإسلام وتشريعاته التي بُنِيَتْ علىٰ النظرة الصحيحة المناقضة لهذه النظرات المنحرفة.

ولو تأمَّلنا في نظام العقوبات في الإسلام مثلًا، لوجدنا أنَّ هناك عقوبات تتعلَّق بجرائم فيها إخلال بحقِّ الله تعالىٰ، ولا يمكن أن يُفهم هذا مع انقلاب المعايير الذي يؤلِّه الإنسان ويُهمِّش مكانة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا يصفون، حيث يظهر أثر هذا التأليه الباطل في استنكار العقوبات الجسديَّة كالجَلْد، وفي هذا تناقض صارخ؛ لأنَّه من المعلوم أنَّه لا يوجد نظام عقوبات لا يؤثِّر علىٰ الجسد بتقييد حريته بالسِّجن، وهذا التقييد يتعدَّىٰ الجسد للنفس، فيؤلمها أيَّما إيلام، ويحول بينها وبين حياتها الطبيعية، ويمتد بتأثيره لإيلام أقاربها وأحبابها، فتتألَّم بهم ويتألَّمون بها، وإذا امتدَّ ذلك لسنوات طويلة، فلا شكَّ أنَّه يصير عذابًا أيَّما عذاب، أمَّا الجَلْد فيؤلم مؤقتًا ألمًا يردع ويستصلح، وهو أهون وأنفع بلا شك.

ولو نظرنا لمثال آخر؛ وهو: الحرية التي تعامل في الفلسفة الغربية كقيمة مطلقة، بينما نجد في الإسلام أنَّ العدل هو القيمة الثابتة، والعدل هنا بمعناه الشامل الذي يتعلَّق بالربِّ تعالىٰ وبالنفس وبالناس، والحرية تتبع العدل في كل هذه المجالات، وإذا انتبه الإنسان لذلك استقام نظره إلىٰ أحكام الشريعة التي تقيِّد الحريَّة، وتُلْزِمُ بحقِّ الله تعالىٰ فيما تلزم به، فلا يستنكر عندها منع إظهار المحرَّمات والعقاب عليها.

وهنا يظهر أثر آخر لمعياريَّة الإسلام، وهو أنَّه يُرَسِّخ تصوُّر الحقِّ والباطل، وقذف الحق علىٰ الباطل ودحضه به، بينما نجد أنَّ الثقافة الغربية تبنَّتْ مذهب النسبية بشكل كبير، وأضعفت النظر للباطل علىٰ أنَّه باطل، ولم تعترف بالحقِّ وفضيلته، فاتسع بذلك مجال الحرية إلىٰ حدِّ الإخلال بأصل العدل المتعلِّق بالاعتقاد الحقِّ والعيش وفقه، وهنا يجب إبراز قيمة العدل وفضيلة الحق، وجعلها مركز النظر والاعتبار، حتىٰ يظهر زيف هذه الانحرافات، وتنتظم القيم في نظام يكتمل بتفاصيله في الأحكام التي جاء بها الشرع الحكيم.

فالواجب علىٰ المسلم أن يستحضر أنَّ شريعته شريعة قيم تُعْلِي العدل وتعظِّم الحق، ولا يسكت حين يهاجَم بالقيم النسبية مثل الحريَّة والمساواة، مع يقينه بأنَّ القيم بترتيبها الصحيح تسري في الشريعة كالروح في الجسد، فلا مجال لانزوائه عند ذلك الطرح، بل عليه أن يفخر بدينه ويسعىٰ لإظهار الحقِّ ودحض الباطل، وبيان هشاشته ونسبيته وفقدانه للمعيارية الثابتة، فهو في حقيقته منهار لا أساس له سوىٰ الدعاوىٰ غير المبرهنة، وخاصة أنَّ الإنسان الغربي ليس عنده أساس حتىٰ لتأسيس قيمة الإنسان، والتفريق بينه وبين الحيوان وفق فلسفاته، بل إنَّ كل قيمة منهارة في نظامه المادي؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يرجعها لاختيار اعتباطي لا يستطيع تبريره وفق الفلسفات السائدة لديه.

وهذا الظهور لقوة الأخلاق في الإسلام لا يقتصر علىٰ خاصيَّة المعياريَّة، بل إنَّ لك أن تستعمل الشمول مثلًا، فإذا تمسَّك المخالف بقيمة، أتيته بقيم أخرىٰ يظهر معها الحق بكماله، وأريته أنَّ الإسلام لا يختزل؛ لأنَّه يمتلك نظرة شمولية، ونظامًا متكاملًا فيه موازنات دقيقة، تحقِّق مقاصده ورؤيته الصحيحة للوجود.

جمال نظام الأخلاق من منظور عُلْوي:

يتَّضح ممَّا سبق أنَّ الإسلام قد بلغ الكمال في نظام الأخلاق بذاتها وتناسقها وترتيب ما يوجدها ويحفظها، وهذا الكمال هو بذاته الجمال الذي تحبُّه النُّفوس وتميل إليه، فإذا طلبتَ قوَّة الخُلُق في نفسه وجدته في هذا النظام، وإذا طلبت التعدَّد في أفراد أخلاقه وجدته، وإذا طلبت التناسق والتوازن والشمول رأيته يفيض به، وإذا طلبت تفصيل التطبيق وجدت النظام التشريعي الذي يرتبط بهذه الأخلاق ويحقِّقها وجودًا وحفظًا، وإذا طلبت أن ترىٰ ذلك كله في خطاب متناسق في معناه ومبناه وجدت الوحي يزخر به في أحسن بيان، فأي جمال تطلبه النُّفوس بعد هذا!

ولو نظر أي منصف إلىٰ ما يسمىٰ بالأخلاقيات في النظم البشرية؛ لوجد التخبط والاختزالات، والخلل في التوازن، وفقدان الأسس، وتمايز الأخلاق عن القوانين، وغياب المعيارية والمنهجية، فضلًا عن أن يجد خطابًا يجمع هذه المجالات وينسِّق بينها في جمال!

وهذه النتيجة طبيعية، فالإنسان محدودٌ في علمه، ونسبيات زمانه ومكانه، وتحيُّزاته وتأثيرات عواطفه، ولذلك لا نجد في النظم البشرية ثباتًا، ولو علىٰ مستوىٰ المعايير والقواعد الكليَّة؛ لأنَّها تخضع لهذه النسبيات، بينما تعلو الشريعة الربَّانيَّة، وتبقىٰ مظلَّة ومنبعًا ومنطلقًا في كل زمان ومكان، وسيأتي مزيد من الحديث عن ذلك في جمالية التشريع إن شاء الله.

الرحلة السادسة

«جماليات التشريع»

نتحدث في هذه الرِّحلة عن جماليات التشريع، وهو -في سياقنا هذا-: كل ما شرع الله تعالىٰ لعباده من الأحكام، ويُسَمَّي أيضًا: شريعة، لكن الشريعة تُطلقُ بصورة أوسع علىٰ مجموع الدين والمنهج الذي ارتضاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعباده، ونحن سنركز هنا علىٰ المنظور الأوَّل، أمَّا الثاني فكل ما سبق من جماليات مشمول فيه.

وحتىٰ نظهر جمال التشريع؛ سنتناول ثلاثة محاور: محور المقاصد، ومحور الكليَّات، ومحور الخصائص، ولنبدأ بالمقاصد؛ لأنَّ عرض الجماليات سيكون واسعًا من نافذتها؛ فالجماليات التي في التشريع تلمح منها بمظهر علوي أخَّاذ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحور الأول

جماليات المقاصد

المقاصد: هي الحِكَم والمعاني التي لأجلها شُرِعَت الأحكام، وهي متنوِّعة؛ فمنها: مقاصد عامة يجتمع نظام التشريع علىٰ تحقيقها، ومقاصد خاصة تتعلَّق بالأحكام التفصيلية في هذا النظام، وكلُّها تُظهِر جماليةَ التشريع وحكمتَه ومحاسنَه.

وهنا يجدر بنا أن نعود إلىٰ التصوُّرات الكبرىٰ في الوجود، لنرىٰ جمال الصلة والاتساق بين الجمالين، وتكمن هذه الصلة في أنَّ مقصد التشريع الأعظم، هو نفس القصد الأعظم من وجود الإنسان في هذه الحياة، وهو تحقيق العبودية لله، أو كما يقول الشاطبي في هذا السياق: (إخراج المكلَّف عن داعية هواه، حتىٰ يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا)[1].

وهذا الاتساق ليس ملحظًا هامشيًّا؛ فإدراك معنىٰ الحياة والاتساق معه يُشعر الإنسان بالطمأنينة ووضوح الرؤية ونشاط السَّيْر واجتماع القلب علىٰ الغاية، والتشريع هو منهج الحياة ومعيار ما فيها من أفعال وتصرُّفات، مع ما فيه من مقصد إقامة مصالح الدنيا والدين؛ فالتشريع يهدف إلىٰ إيجاد المصالح في الدنيا والآخرة وتكميلها، ونفي المفاسد في الدنيا والآخرة وتقليلها، وهذا يتَّسق مع فطرة العقل وغريزة النفس.

---

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ٢٨٩).

وهنا نلحظ اتِّسَاق الغايتين؛ فالمسلم يتعبَّد بالتسليم والطاعة، ويثق أنَّ في تعبُّده ذلك تحقيقَ مصلحتِه علىٰ الوجه الأكمل؛ لأنَّ التشريع الذي يخضع له هو تشريع الحكيم سبحانه، العدل الرحيم، الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، ومبادئها ومآلاتها، كما يقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

وضمن هذا التصوُّر المقاصدي الكليِّ الأعظم، نجد أنَّ التشريع يسعىٰ لتحقيق خمس غايات كبرىٰ يدور عليها كلُّ التشريع جملة وتفصيلًا، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعِرْض، والمال، وهي المرتكزات الكبرىٰ لتحقيق غاية الخلق وإقامة مصالح الدين والدنيا.

١. **حفظ الدين**: وهو أعظم هذه المرتكزات، ونجد في التشريع عناية عظيمة ببيان أركانه وكيفية إقامتها، وبيان وجوب ظهوره في حياة المسلمين وصبغه لها؛ فنجد فرضَ الأذان، وإقامة الجُمَع والجماعات، والعيدَين، والإمامة الصغرىٰ والكبرىٰ، وأحكام الجهاد وغير ذلك، وقد ذكرنا صلة نظام التعبُّد بالأخلاق، وهنا نجد الصلة مستمرة بين التعبُّد وبين المعاملة، فنجد المعاملات المالية -مثلًا- قائمة علىٰ العدل والتراضي والصدق، وتحريم ما ينافي ذلك من الغش وأكل المال بالباطل، والحقُّ أنَّ هذه المرتكزات المقاصدية نسيج واحد مترابط مع بقية الشريعة بمعناها الأوسع.

٢. **حفظ النَّفس**: وقد عَظَّمت الشريعة ذلك، فأوجبت لها حقًّا يقتضي التوازن بين شعائر التعبُّد وحاجات النفس وحقوق الآخرين، وحرَّمت ما يضرُّ بها من الخبائث، وشرعت القصاص لمنع العدوان، وحدَّ الحرابة لمنع السعي في

الأرض بالفساد، وهنا نجد قوة الصلَّة بين أحكام الشريعة، فالاهتمام بالدين هو اهتمام بالنفس التي تحتاجه لتزكو وتنجو وتفلح، وقد قال تعالىٰ في النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩].

٣. **حفظ العقل**: نجد ذلك فيما قامت به الشريعة في مخاطبته واستثارته ليتفكَّر ويعقل عن الله تعالىٰ أمره وينظر في آياته، ثُمَّ منعت الإضرارَ به وتغييبَه، ولو مؤقتًا كما في تحريم الخمر، وشرعت العقوبة علىٰ ذلك، وسَعَت في عموم أحكامها للحفاظ علىٰ الفطرة، وهي أصل عظيم في سلامة التفكير العقلي وانطلاقه من أرضية ثابتة، وقد أشرنا إليه سابقًا في حديثنا عن جمال الخِلقة الإنسانية في جمال التصوُّرات الكبرىٰ للوجود.

٤. **حفظ العِرْض**: وذلك من خلال تشريع أحكام الزواج، وما يتعلَّق بإقامة الأسرة ومصالحها، وتحريم الزِّنا ومنع ما يدعو إليه، وسدِّ ذرائعه، وما في الشريعة أيضًا من أحكام التعامل بين الجنسين، واللِّباس، والنَّظَر، والاستئذان؛ لتقوم العلاقة بين المسلمين علىٰ أساس العِفَّة ورعاية المصالح ضمن نظامٍ من الحقوق المتبادَلة، وبناء لبنة صالحة في المجتمع من خلال كيان قائم متماسك، وبذلك منعت الشريعة مفاسد الزنا، وتفكُّك المجتمع، وضياع الذُّرِّيَّة، وتحوُّل الإنسان لحياة بهيمية، وهذا المرتكز التشريعي يتميَّز به المسلمون اليوم كحصن أخير للفطرة السويَّة التي ينحدر العالم ويهوي بعيدًا عنها.

٥. **حفظ المال**: إذ فيه قيام للحياة البشرية، كما وصف الله تعالىٰ الأموال: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥]، فشرع تحصيلَه بالكسب الحلال، وتداولَه ليعمَّ نفعه، والبذل منه للفقير، وحرَّم أكله بالباطل واحتكاره والاستئثار الظالم به، وأقامت الشريعة نظامًا بديعًا متكاملًا لتحقيق التراضي في التعامل به، وتحقيق

النفع العام والخاص به، ونجد هنا أيضًا سمة التكامل والصلة بين أحكام التشريع، فقد جعلت الشريعة المال وسيلة لحفظ الدين بالجهاد به، فهو وسيلة لإقامة المصالح، وقد حذَّرَتْ من تضييع الدين لأجله.

وهكذا يظهر أنَّ هذه المقاصد الخمس مرتكزات كبرىٰ بالفعل، وأنَّ التشريعات التفصيلية التي تتناول مختلف الأفعال والتصرُّفات تسعىٰ لتحقيقها وحمايتها، ولو ذهب الإنسان لهذه التفصيلات وتأمَّلها لانبهر بحجم العمق في هذا النظام مع التناسق فيه، بحيث يتَّجه إلىٰ غايات بيِّنة حَسَنة، مع ما يظهر فيه من ترتيب للأحكام بحسب الأولويات، بين ضروريات لهذه المرتكزات لا يُستغنىٰ عنها، وحاجيات يقع الحرج بعدم اعتبارها، وتحسينات تكميلية.

المحور الثاني

جمال الكليَّات

الكليات: قواعد عامة تندرج فيها الأحكام، أو يتم اتباعُها في عملية استنباط الأحكام وتنزيلُها علىٰ الوقائع، وهي من الأمور المبهرة في الشريعة، التي أكسبتها خصائص عظيمة؛ مثل: الشمول، والمرونة، والصلاحية لكل مكان وزمان؛ بحيث لا توجد نازلة إلا ولها في الشريعة حكم يرجع إلىٰ كليَّاتها ومقاصدها ونظامها التشريعي التفصيلي، ويمكننا أن نعرض الكليَّات من خلال ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: الأصول والمنهجيات

فالإسلام جاء بأصول تُستخرَج منها الأحكام، مرجع تلك الأصول إلىٰ الوحي، والوحي مصدره رب العالمين، العليم الحكيم سبحانه، وهنا تكمن الميزة الكبرىٰ، وهي أنَّنا نرجع إلىٰ مصدر لا تُحدُّ حكمته، ولا يُحاط بعلمه، وتحت هذه الجُمَل العامة تدخل الأدلة الإجمالية من كتاب وسنة، وما يتبعها من قياس واستصحاب، وغير ذلك مما نجد تفصيله في كتب أصول الفقه.

ثُمَّ إنَّ الوحي أرسىٰ مبادئ منهجية للاجتهاد في فهم النصوص؛ مثل: تقرير عربيَّة القرآن، وما يقتضيه ذلك من إعمال لقواعد اللغة في فهم النصوص ضمن ما يُعْرَف بدلالات الألفاظ، وكذلك دلَّ علىٰ حُجِّيَّة الإجماع بنصِّه علىٰ خيرية الأمة بمجموعها، وأمرها بكليتها بالمعروف، ونهيها عن المنكر، فلا تجتمع علىٰ ضلالة، ولا تخلو من قائل بالحق، وهو ضابط مهمٌّ للاجتهاد.

ومن المنهجيات الإسلامية الأصيلة: التثبت والإخلاص، والاجتهاد وبذل الوسع، وحسن الظن والتماس الأعذار، وطلب الأدلة واتباع الحقِّ، والحذر من الهوىٰ والتعصُّب، وعدم الركون للمعايير الزائفة، وردُّ المتشابه إلىٰ المُحْكَم، وردُّ الجزئي إلىٰ الكلِّي، والجمع بين النُّصوص ما أمكن، والجمع بين المصالح وتكثيرها، ونفي المفاسد وتقليلها ما أمكن، إلىٰ غير ذلك من منهجيات تكاثرت أدلة الشريعة علىٰ إرسائها، ولو ذهبنا نتتبَّع أدلة كل منها لطال بنا المقام.

الجانب الثاني: قواعد الفقه

وكما أنَّ الشريعة تبدأ بالناظر من كليَّات، فهي تنتهي به إلىٰ كليَّات، فالفقهاء لما اتَّبعُوا الأصول والمنهجيات الشرعية؛ وصلوا لأحكام الفروع، ثُمَّ لاحظوا أنَّ بين هذه الفروع كثيرًا من المشتركات التي هي من قبيل المقاصد التي تَقدَّم الكلام عليها، أو من قبيل القواعد الفقهية التي تنتظم كثيرًا من أحكام التشريع، وهذه بدورها صارت منهجيات للاجتهاد الفقهي، ومن أبرزها: القواعد الكبرىٰ الخمس؛ وهي: الأمور بمقاصدها، واليقين لا يزول بالشك، والمشقَّة تجلب التيسير، ولا ضرر ولا ضرار، والعادة محكَّمة.

فقاعدة: «**الأمور بمقاصدها**»؛ تلفت النظر إلىٰ أهمية القصد وتأثيره في الأحكام، كما في الحديث: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)[1]، وهذا في تصرُّفات المكلَّفين في التعبُّد والمعاملات وغيرها، وأيضًا تُوسِّع هذه القاعدة النظر، فلا يقتصر علىٰ ظاهر العمل فقط، بل ينظر في المآلات والقصد الذي يكون العمل وسيلة إليه، وهذا من شمول

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦) برقم: (١)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في صحيحه (٦/ ٤٨) برقم: (١٩٠٧)، (كتاب الإمارة - باب قوله ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنية»).

التشريع، مع ما في تفاصيله من ضوابط تحقِّقُ التوازن بين ظاهر الفعل وما يُؤَدِّي إليه من مآلات.

وقاعدة: «**اليقين لا يزول بالشك**»؛ تنظِّم النظر لينطلقَ من الأصول المستقرَّة، ويجعلَها مستمرَّة حتىٰ يَثبُتَ ما ينقُل عنها، فالذمة بريئة حتىٰ يثبت الدَّيْن، والطهارة باقية حتىٰ يثبت الحَدَث، والمعاملة جائزة حتىٰ يثبت تحريمها، وهكذا نجدها تضفي علىٰ النظر صبغة منهجية وانضباطًا عاليًا، ووضوحًا مريحًا.

وقاعدة: «**المشقَّة تجلب التيسير**»؛ تمثِّل خاصية في التشريع، ليتَّسِع ويشمل الاستثناءات من الأصول، مراعاةً للحرج الذي يُسبِّبه الاستمرار علىٰ نفس الحكم مع وجود أسباب الحرج كالمرض والسفر والظروف الاستثنائية الأخرىٰ، فيتحقَّق التوازن بين المقاصد الشرعية والمرونة في تطبيق أحكامها علىٰ الوقائع، بحيث يراعىٰ تحقيق مصالح الشرع مع حفظ النفس، ورفع الحرج عنها.

وقاعدة: «**لا ضرر ولا ضرار**»؛ تُرسِي أهمية المعيار العام الذي جُبِلَتْ عليه العقول من جلب المصالح ودفع المفاسد، ثُمَّ توضِّح بتفصيلاتها كيفية التصرُّف والموازنة عندما تتعارض المصالح والمفاسد حسب أولويات الشرع؛ فهي تنقل هذا المعيار من صبغته العامة الإجمالية إلىٰ منهجيات تفصيلية تُكسب الاجتهادَ الشرعيَّ الدِّقَّة في الموازنة، والشمول في التناول.

وقاعدة: «**العادة محكَّمة**»؛ تبرز خصائص الواقعية والمرونة في التشريع، وذلك أنَّ بعض الأحكام تتعلَّق بواقع متغيِّر، فيربط التشريع تطبيقها بالعادات، كربط مقدار النفقة علىٰ الزوجة بالمعروف، فيختلف باختلاف الأعراف، وهو ما يحقِّق مقاصد الشرع في ذلك الواقع بحسبه، فتكون الأعراف كاشفة عمَّا ينزل عليه الحكم الشرعي، لا مُنشئة للحكم بذاتها، فذلك لله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن الجماليات التي يشار إليها هنا: أنَّ لهذه القواعد دورًا في ضبط منهج الإنسان في حياته وتنظيم تفكيره، فإنَّه إذا تأثَّر بها راعىٰ النيَّات ومقاصد الأفعال، وعرف الفَرْق بين الوسائل والمقاصد، متفَهِّمًا لما يصلح أن يكون قاعدة مستقرَّة يستمر عليها دون أن ينتقل ويضطرب مع كل سبب غير ثابت، مراعيًا للظروف الاستثنائية، متَّسِع الصدر للعُذْر في موضعه، ساعيًا في تكثير الخير وتقليل الشر، مهتمًا بالأولويات والموازنة بين المقاصد المختلفة والمهام المتنوعة، مراعيًا أحوال الناس وواقعهم.

الجانب الثالث: المعاني الكليَّة

من محاسن الشريعة أنَّها شريعة معانٍ، فهي إذا حكمت وجدْتَ في حكمها معنىً كُلِّيًّا، خذ -مثلًا- قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في معاملة الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، فالحكم هنا متعلِّق بقول: «أُفٍّ»، لكنَّ فيه معنىً كُلِّيًّا؛ هو: عدم الإيذاء، وهذا المعنىٰ يُعطينا قاعدة عامة نمشي عليها، يقول السعدي: (وهذا أدنىٰ مراتب الأذىٰ نبَّه به علىٰ ما سواه، والمعنىٰ لا تؤذِهما أدنىٰ أذيَّة)[1].

وقل مثل ذلك في تحريم الخمر، فإذا أخذنا ما فيه من المعنىٰ؛ أدركنا أنَّه يرجع إلىٰ: حفظ العقل بتحريم ما يذهبه، فيدخل في ذلك ما يستجدُّ مِن مخدرات مثلًا، وهكذا نجد أنَّ الشريعة تتَّصف بالشمول لكلِّ ما يستجد.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص٤٥٦).

المحور الثالث

جماليات خصائص الشريعة

نلاحظ أنَّ في تشريعات الإسلام سماتٍ عامَّةً يختص بها، وهي مستمرة ومطَّردة في كل الأحكام، كالروح التي تسري في نظامه؛ مثل: الشمول، والتوازن، والمرونة، والواقعية، واليُسْر وغير ذلك، وسنعرض طائفة من أبرز الخصائص مُطِلِّين منها علىٰ جماليات التشريع.

الأول: جمال شمول الشريعة

يتميَّز التشريع الإسلامي بشمول مبهر متعدِّد المستويات؛ فمن جهة القِيَم نجد أنَّه يُراعي كل القيم الحسنة، فقيم الرأفة والعفو ونحوها لها مراعاة، وفي الوقت نفسه يُراعي العدل وإقامة الحق، ومن جهة الحقوق نجد أنَّه يُراعي حقَّ الله تعالىٰ وعبوديته، ويُراعي حقَّ النفس، وحقوق الناس.

وإذا نظرنا إلىٰ تكوين الإنسان من جسد وروح؛ نجد أنَّ التشريع يهتمُّ بالجسد طهارةً وبُعْدًا عن المضِرَّات، وحفظًا للصحة، ويهتمُّ بالنفس تزكيةً وتخليةً من الأخلاق السيئة، ونجده مع ذلك يعتني بالوازع الداخلي ويخاطبه بعمق، ثُمَّ لا يهمل الجانب الخارجي المتعلِّق بتأثير الدعوة إلىٰ الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود والتعزيرات.

وإذا نظرنا إلىٰ الحياتين الدنيا والآخرة؛ وجدناه يعتني بصلاحهما؛ فنجد أحكامًا للمعاملات التي تُجرَىٰ في الدنيا بين الناس، ونجد أحكامًا للمعاملة مع الله عزَّ وجلَّ المتعلِّقة بالدنيا والآخرة، وأيضًا نجد مراعاة لحفظ الدين وإقامة ما يحفظه من الشعائر مثل: الصلاة، ونجد مراعاة لما يحفظ النفس والمال مثل: الجهاد، وتحريم الربا، وإيجاب الزكاة.

كما نجد في التشريع شمولًا من جهة المجالات؛ فهناك أحكام للأسرة، وأحكام للفرد، وأحكام للمجتمع، وأحكام تتعلَّق بالاقتصاد، وبالسياسة الشرعية والتعاملات بين الكيان السياسي المسلم والكيانات الأخرىٰ، وهناك أحكام للسِّلْم، وأخرىٰ للحرب.

وإذا نظرنا إلىٰ اختلاف الظروف والأماكن والأزمنة وتعدُّد الأجناس والأعمار والأحوال، وجدنا الشريعة قد راعت ذلك كلَّه بنظامها التفصيلي، وسادت في ظروفٍ مختلفة، وأقطار متباعدة، وأجناس متنوِّعة، ونجد فيها أحكامًا للمرض والسفر، وأحكامًا خاصة بالنساء والصغار والكبار، وغير ذلك.

ومن أعظم هذا الشمول ما يظهر لك إذا دخلت في تفاصيل باب معيَّن، فشأن التشريع أنَّه إذا عالج شيئًا تناوله من جميع جوانبه، في ذاته وما يؤول إليه، فيتناوله بتقعيدات عامة وبتفصيلات، وسنأتي للتمثيل بذلك بعد عرض الخصائص إجمالًا.

وكذلك يظهر لك هذا الإبهار إذا أردت أن تنظر لقضية معيَّنة تحتاج لعلاج؛ فمثلًا: عندما ننظر إلىٰ قضية الفقر، نجد أنَّه لا يُعالج بالزكاة فقط، فهناك مسؤولية علىٰ الأقارب في النفقة، ومسؤولية علىٰ الإمام من ناحية بيت المال، فالمعالجة شمولية، كذلك هناك حث علىٰ العمل، وأنَّ الإنسان لا يركن إلىٰ السؤال، بل يتكسَّب إذا كان قويًّا، وهكذا.

فأيُّ مشكلة في الشريعة تعالَج بشمول، وينظَر إليها من أكثر من زاوية، بحيث تُنظِّمُ الأطراف والأدوار المتعلِّقة بها، وتُعْطِي التفصيل الذي يناسبها.

الثاني: جمال توازن الشريعة

مما يتَّصل بجمالية الشمول جمالية التوازن؛ لأنَّ الشمول يعني وجود اهتمام بقضايا كثيرة متعددة الأطراف والمقاصد، وهنا ستحتاج مع الشمول إلىٰ التوازن بين كل هذه الأمور المتعددة، ولْنستعرض بإيجاز بعض مظاهر التوازن:

- الموازنة في مراعاة القيم:

هناك قيم عُليا، فحقُّ الله ﷻ وعبوديَّته أعلىٰ شيء، وهناك قِيَمٌ مطْلقة لا تتقيَّد؛ مثل: العَدْل، والحق، وبعد ذلك تأتي أمور فيها نسبيَّة، مثل: الحرية، فتوازن الشريعة بين هذه القيم، بحيث يتبع الأدنىٰ الأعلىٰ، ويتبع النسبي المطلق، وتجد أحكام الشريعة منضبطة بذلك.

ومَن يعرف هذا ويُدركه لا تحصل عنده إشكالات، فلا يستشكل -مثلًا- بعض عقوبات الشريعة؛ لأنَّه يعلم أنَّ الإنسان مكرَّم، ولكن إنسانيته لا تمنع عقوبته إذا انتهك الحرمات، وهذا يكون واضحًا إذا بُني في نفس الإنسان أنَّ القيمة العليا هي عبودية الله ﷻ، وهو الذي يُنظِّم لنا الحريات بطريقة لا تُسبِّب لنا ضررًا دنيويًّا أو أخرويًّا، أو عامًّا أو خاصًّا، فهناك موازنات في هذه الأمور كلِّها، ولذلك نجد أنَّ للإنسان حرية التصرف في أمواله، لكن يتقيَّد بأحكام التعاملات الإسلامية، فلا يغش، ولا يُرابِي، ولا يبيع بالغَرَر، وهكذا.

- **الموازنة بين المقاصد والمصالح والمفاسد باعتبارات كثيرة:**

يوازن التشريع في القضايا ذات المقاصد والمصالح المتعددة؛ فمثلًا: أنتَ تريد أن تصلي وتحتاج إلىٰ الطهارة، وهذا شيء مهم، لأنَّ فيه تعظيمًا لله ﷻ عند القيام بين يديه، لكن لأنَّ إدراكك محدود، ولئلا تتعرَّض للمشقَّة، قَبِلَت الشريعة حصول الطهارة لك بغلبة الظنِّ، مع أنَّ اليقين أفضل، ولكن الشريعة لم تطلب هذا؛ لأنَّها لو طلبتْ هذا أخلَّتْ بجانب آخر: هو جانب التيسير علىٰ المكلَّف، وكون الأحكام تُناسب طبيعته.

- **الموازنة بين أطراف القضايا:**

فعندما يكون في قضية أكثر من طرف، تجد أنَّ هناك مراعاة لكلِّ الأطراف؛ فمثلًا: تجد مراعاة للمَدِين إذا أعسر، فالدَّائن يجب أن يُمْهِلَه، ولكن ذلك لا يُسْقِط حقَّ الدَّائن، بل يستحقُّ المال لو وُجِدَ عند المَدِين مستقبلًا زيادة عن حوائجه الأصلية، وكذلك تجد أنَّ المشتري يُراعىٰ بإعطائه حقَّ رد السلعة بالعيب، ولكن من حقِّ البائع عدم الردِّ لو كان بيَّن له العيب قبل البيع؛ لأنَّ المشتري عَلِمَ به ورضي.

وهكذا؛ نجد الشريعة توازنت بين حاجة الفقراء ومال الأغنياء، ففرضت الزكاة عند توفر شروط معينة بحيث لا تجحف بالأغنياء، ونوَّعت أصناف الزكاة حتىٰ تسدَّ حاجة الفقراء.

وهكذا لا تجد في الشريعة اهتمامًا بطرف وإجحافًا بغيره، كما في النُّظُم البشرية التي لا تزال تنتقل من طرف لطرف ولا تتوازن.

- **الموازنة بين الحقوق والمسؤوليات:**

فمثلًا عندما تكون صاحب ولاية عامَّة أو خاصَّة، أو صاحب قوامة ورعاية في بيتك، فإنَّ لك حقوقًا، ولكن عليك مسؤوليات، وقد وازنت الشريعة بين كل ذلك بعَدْل، ولذلك فلا تستغرب من الحقوق عندما تجد أنَّ الشريعة قد أعطتها لطرف، بل انتبه لما كلَّفته به مقابل ذلك من مسؤوليات، وكلَّما زادت الحقوق تزيد تلك المسؤوليات.

- **الموازنة بين النفس والناس:**

فنفسي لها حق، والناس لهم حق، وأولادي لهم حق، والمجتمع له حق، وجاءت الموازنة بين كل هذا، كما في قول سلمان لأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ... فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ)[1].

- **الموازنة بين الروح والجسد:**

مع أنَّ التركيز علىٰ الروح لتزكو، لكن لا بُدَّ أن يُعْطَىٰ الجسد حقه، كما في قول النبي ﷺ: (لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[2].

---

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢) برقم: (٥٠٦٣)، (كتاب النكاح - باب الترغيب في=

الثالث: جمال يسر الشريعة

من أهم الخصائص التشريعية التي وُصِفَ بها هذا الدِّين: أنّه دين يُسْرٍ، كما في نصِّ الحديث: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ)[1].

ويظهر هذا اليُسْر في أصول التشريعات، وفي استثناءاتها التي تكون لظروف خاصة، فنجد أنَّ هذا الدِّين راعىٰ القدرات، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فلا تجد أنَّ الأحكام الشرعية من قبيل ما يعجز عنه الإنسان، أو يترتَّب عليه عَنَتٌ وحرجٌ كبير، وقد أكَّد الله تعالىٰ ذلك في كثير من المواضع، كقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وأمَّا جانب مراعاة الأحوال الخاصة والظروف الاستثنائية، فهو واضح جدًا أنَّىٰ اتَّجهتَ بنظرك في أرجاء الشريعة، فهناك أحكام خاصة للصغير والكبير، والضعيف والمريض، والظروف الطارئة؛ كالسَّفَر والحَرْب، وغير ذلك.

أمَّا في شأن الحاجات العامَّة التي لا تكون مجرد استثناء، فنجد الشريعة تجعل الإباحة أصلًا في مواضع تلك الحاجات، حيث جَعَلَت الأصل في المعاملات: الإباحة، وحدَّدت أسباب التحريم بأمور معدودة تغلب مفسدتها علىٰ مصلحتها، وتنافي تحقُّق التراضي، وتفتح الباب لأكل أموال الناس بالباطل، بل نجد أنَّ الشريعة تتغاضَىٰ عن بعض المفاسد والاحتمالات النادرة إذا كانت المصلحة أغلب، ولذلك أباحت الإجارة والجعالة والسَّلَم، وغيرها من المعاملات التي تتضمَّن شيئًا يسيرًا من الغَرَر[2] الذي يشقُّ اعتباره، ويؤمن جانبه إذا اتبعت أحكام الشرع في تلك العقود.

=النكاح)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٢٩) برقم: (١٤٠١)، (كتاب النكاح).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٧) برقم: (٣٩)، (كتاب الإيمان - باب الدين يسر).

(٢) يأتي معنى الغَرَر في الحديث عن تشريع المعاملات المالية لاحقًا.

الرابع: جمال واقعية التشريع

التشريع الإسلامي مرتبط بواقع الناس، فهو ليس منفصلًا عنهم بحيث لا يستطيعون تطبيقه أو يشقُّ عليهم، وهذا يظهر من خاصيَّة اليُسْر التي سبقت، ومن أمور أخرىٰ؛ مثل: مراعاة الشريعة لعادات الناس المباحة واعتبارها في التشريع، فبعض التشريعات مبنية علىٰ أوصاف يتم التحقُّق من وجودها في الواقع قبل تنزيل الحكم، مثل: تحديد مقادير النفقات، فتكون النفقة كافية في وقت دون وقت، ومكان دون مكان، بحسب الواقع الذي تكشف عنه العادة.

وتظهر الواقعية كذلك بانضباط هذا التشريع، ومعنىٰ ذلك أنَّك تجد فيه استقرارًا وسهولة في استمرار التطبيق مع اختلاف الظروف؛ لأنَّ الأحكام فيه تُعَلَّق علىٰ أشياء واضحة ومستقرَّة، فيسهل علىٰ الإنسان أن يحكم بناء عليها، مثال ذلك: تعليق رخصة قصر الصلاة علىٰ السفر وليس علىٰ المشقَّة؛ لأنَّ من الصعب واقعيًّا أن يُعَلَّق الحكم بالمشقَّة؛ لتفاوتها كثيرًا بين الأشخاص والأحوال، فعَلَّق الحكم علىٰ شيء ظاهر يسهل ضبطه، وهو نفس السفر، وهو وصف ترتبط به المشقَّة في الغالب، والاعتبار بالغالب وترك النادر من مظاهر الواقعية وانضباط الأحكام.

الخامس: جمال مرونة التشريع

تظهر المرونة في كثير من جوانب التشريع، ونعني بها: التجاوب مع اختلاف الواقع، بحيث تستوعب الشريعة ذلك الاختلاف، ومما يُظهر ذلك ما مرَّ في اليُسْر، والواقعية من مراعاة الظروف والحالات الاستثنائية، وربط الأحكام بصفات ظاهرة قابلة للانضباط، واعتبار العادات في تنزيل بعض الأحكام علىٰ الواقع، ويُضَاف لذلك أصلٌ عظيم في الشرع؛ وهو: إعطاء الاجتهاد دورًا في الأحكام، ففي الشريعة

مساحة للاجتهاد في بعض الأحكام بالنظر في كيفية تنزيلها علىٰ الواقع، أو بقياس مسألة جديدة علىٰ مسألة سابقة، أو بإلحاقها بقاعدة عامة ونحو ذلك.

وبتشريع الاجتهاد تكتسب الشريعة مرونة في الحكم علىٰ المستجدات مهما كثُرَت، وتظهر المرونة حتىٰ في تنوُّع الاجتهادات، والخلاف فيها بين العلماء، فيُؤَدِّي ذلك إلىٰ تعمُّق المجتهدين في الاستنباط من الأدلة وتدقيق النظر في دلالاتها، ثُمَّ يكون منهم اجتهاد في طلب الحقِّ وإظهاره، ويقع ابتلاؤهم بذلك في الوقت نفسه -وهو من غايات إنزال آدم إلىٰ الأرض وبه تظهر أنواع عظيمة من العبوديَّات كالصبر والمجاهدة- كما يُبْتَلَىٰ المقلِّد في أن يكون قصده الوصول للحقِّ بالاجتهاد في معرفة صاحب العلم والدين المؤهَّل للفتوىٰ، وتجنُّب اتِّباع الهوىٰ إذا تعارضت أقوال المجتهدين عنده، فيكون اختياره لما يغلب علىٰ الظنِّ عنده أنَّه أصوب بطريقة من طُرُقِ الترجيح التي تناسب مستواه العلمي، لا بالهوىٰ والتشَهِّي.

وبالتعامل مع الاجتهاد بطريقة صحيحة، يظهر تنوُّع في مذاهب العلماء يتبعهم فيه من يتبعهم، فينتج نوع من المرونة أيضًا قد ينعكس يُسْرًا في بعض الأحوال، علىٰ ألَّا يكون ذلك عن اتِّباعٍ للهوىٰ.

السادس: جمال المنهجيَّة

التشريع الإسلامي منهجي، ويُعلي من شأن المنهجية؛ فليس فيه فوضىٰ وتضارب في أُسسِه أو طرقه في ترتيب الأحكام ووصول الناس إليها وتطبيقها، بل فيه نظام واتِّساق وأُسس مفصَّلة.

ومما يُبيِّن ذلك ما مرَّت الإشارة إلىٰ بعضه من معالم منهجية، مثل: اعتماد أصول وقواعد تضبط السَّيْر في الوصول للأحكام وتطبيقها، ومنه عدم قبول الدعاوىٰ بلا أدلة

كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦].

وهذه السمة المنهجية والتوجيهات المنهجية تُنظِّم تفكير المسلم في علوم الشريعة، بل حتىٰ في العلوم الطبيعية وغيرها، وهي مما يُفسِّر أنَّ المسلمين سادوا في الأزمنة التي كان الغرب فيها مُنْحَطًّا في القرون الوسطىٰ؛ لأنَّ الغرب أَغْرَقَ في مسائل التفلسف التجريدية بعيدًا عن الاعتماد علىٰ أدلة الوحي والأدلة الواقعية، فتميَّز المسلمون في هذا الجانب، مع تفوقهم في الجانب العقلي بحكم انطلاقهم من الوحي وما يُنمِّيه في الإنسان من منهجية عقلية منضبطة.

فالإسلام يُعلي من شأن العلم ويحيل الناسَ علىٰ العلماءِ ويضعُ لهم اعتبارًا دون غلوٍّ فيهم، وهذا من توازن الشريعة، فإذا أضفنا لذلك ما ذكرناه سابقًا فسنجد أنَّ المسلمَ منهجيٌّ في تعامله مع المعارف صحيحها وخاطئها؛ لأنَّ عنده توثُّقًا من مصادر معلوماته التي يستقي منها، ولا يبني الأمور علىٰ التخرُّص والجهل، مع عدم غُلُوِّه في المتخَصِّص، الذي هو في النهاية بشر قد يُصيبُ، وقد يُخطئ.

السابع: جمال معيارية الشريعة

إنَّ الشريعة مبنية علىٰ معايير واضحة، وليست متروكة للنِّسْبِيات العائمة، وذلك لأنَّ مصدرها هو الله تعالىٰ، الذي أنزل الميزان وفطر الإنسان، فهو تعالىٰ وحدَه مصدر الحق الكامل، وكل ما يصدر عنه يعدُّ معيارًا تُوزن به الأمور، وكل ما سواه تعالىٰ راجع إليه.

ونجد نتيجة لذلك اهتمام الشريعة بتأكيد المعايير الكبرىٰ؛ مثل: إيجاب العدل وتحريم الظلم، كما جاءت بالمعايير التفصيلية التي تفصل النزاع بين الناس، وفي

هذا يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (النَّاس لا يفصل بينهم النِّزَاع إلا كتاب مُنزل مِن السَّماء، وإذا رُدُّوا إلىٰ عقولهم فلكل واحدٍ منهم عقل)[1]، فالعقول تجتمع علىٰ أشياء نتيجة للفطرة المشتركة، ولكنَّها إذا دخلت في التفاصيل تزيد بينها مساحة النِّسْبِيات، ويحصل الضَّيَاع والتهارُجُ بين الناس، ما لم يفصل بينهم الشرع.

ومن معيارية الشريعة: أنَّها رسَّخت محكمات تضبط ما قد يتشابه من الجزئيَّات، فلو هُدِّد أحدهم بالقتل إمَّا أن تَقتل أو تُقتل، فيمكن أن يقول: سأقتل لأنِّي في ضرورة، فنقول له: لا، فهناك محكم وهو أنَّ دماء المسلمين متساوية، فلا يجوز أن تقتل غيرك حتىٰ تُبقي نفسك، وهنا قد يحصل التشابه بسبب النظر إلىٰ قاعدة الضرورات في هذه الصورة التي تعارضت فيها المفاسد، لكن بالرجوع للمُحْكَم يتَّضح أنَّ المسألة مما لا يصح تطبيق قاعدة الضرورة فيه، لتعارضها مع المحكم، ولأنَّ ذلك من قبيل إزالة الضرر بمثله.

ومن معياريَّة الشريعة: ما أشرنا إليه سابقًا من كُلِّيَّات تتضمَّن الأصول والمنهجيات والقواعد والمعاني، إضافة للنُّصوص الشرعية الواردة في مختلف أبواب الأحكام، ونظام الأحكام التفصيلي الناتج عن ذلك.

الثامن: جمالية التكامل في التشريع

التكامل بين الموجودات أمر ملاحظ، وهو من جماليات سنن الله تعالىٰ في الخلق؛ فكل شيء في الوجود له دور وعليه مسؤولية، وهناك علاقات تحكمه مع غيره، كما نجد هذا التكامل في أحكام الشريعة، فالمسؤوليات والأدوار موزَّعَة بين الناس.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٩).

فالرجل والمرأة يتكاملان، وتُـوَزَّعُ الأدوار بينهما في هذه الحياة، والحاكم والمحكوم، والأب والأبناء في الأسرة، وغيرهم.

ويظهر التكامل بين الأحكام نفسها، فعندما تعالج الشريعة مشكلة نجدها تُعالجها في جزئيات كثيرة متكاملة، ففي تكوين الفرد الصالح والحفاظ علىٰ صلاحه -مثلًا- هناك دور للأبوين في البيت، وهو التربية، ودور للمجتمع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودور للقضاء في العقاب، فتتكامل المعالجات علىٰ مستويات مختلفة.

وقد سبق أنَّ في الشريعة أمورًا كلية، وقواعد عامة، وأحكامًا تفصيلية، ونجد كل ذلك منسجمًا مع بعضه، ويُفْهَمُ الجزئي منه بصورة مبهرة في ضوء تصوُّر علاقته بالكليِّ.

فلو جئنا -مثلًا- لشخص يعيش في الغرب، ولا يعرف شيئًا عن الإسلام، فقد يُصْدَمُ إذا علم أنَّ الرجل لا يصافح المرأة؛ لأنَّه يَعُدُّ ذلك في ثقافته نوعًا من قلة الأدب، لكن عندما يعلم أنَّ الإسلام أعلىٰ قيمة العفة، وجعل العلاقة بين الرجل والمرأة محصورة في الزواج، الذي يقيم الأسرة ويحفظ النسل ويحقق الاستقرار، وتترتب عليه مصالح عظيمة، ثُمَّ إذا علم أنَّ الزنا علىٰ العكس من ذلك، فهو ممارسة قبيحة يُـؤَدِّي لامتهان الجسد بعيدًا عن إطارٍ حاكم ذي مبادئ سامية، وغايات حميدة، وحماية ربَّانية، وتقود هذه الممارسة السافلة إلىٰ تفكك الأسر والإجهاض وغير ذلك، فلو وضعناه في هذا السياق، وقلنا له: نتيجة لذلك نظَّمَ الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة، وألزم المرأة بالحجاب، وأمرهما بغض البصر، وجعل بينهما آدابًا وضوابطَ في الحديث والتعامل، فحينها سيَفْهَمُ الحُكْم، ويشعر بكماله وجماله حين أدرك موقعه من النظام المتكامل.

فهكذا يجب أن تُفْهَم جزئيات الإسلام مع كلياته، ولا تُفْصَل عن بعضها، وكثير من الذين يُلْقُون الشبهات حول الإسلام لا يفعلون شيئًا سوىٰ أنَّهم يُهْمِلُون هذا التكامل، ويُجزِّئون، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١].

التاسع: جمال كمال الشريعة مكتبة سُر مَن قرأ

نلاحظ مما سبق من عرض مقاصد وكليَّات وخصائص الشريعة: أنَّ هذا التشريع كامل لا نقص فيه، وكله محاسن، وهو وافٍ باحتياجات الناس، وهو الأصلح لأحوالهم ودنياهم وأُخراهم، وهذه الخاصية ملاحظة من فهم نظام التشريع، بشموليته واتزانه وعمقه وتفاصيله، وهي أيضًا عقيدة؛ لأنَّ الله تعالىٰ أخبرنا بها سبحانه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وينتج عن إدراك هذه الخاصيَّة: حب الشريعة؛ لأنَّ الإنسان مفطور علىٰ حبِّ الكمال، ولأنَّ الإيمان بربَّانية الشريعة يوجب ذلك.

كما ينتج عن هذه الخاصيَّة: اعتقاد صلاحية الشريعة لكلِّ زمان ومكان، ويُنْتِجُ الثقة والاعتزاز بها، والدفاع عنها دون ضعف أو حرج.

وينتج عن إدراك كمال الشريعة: أنَّ أيَّ طعن فيها لا يكون له أيُّ وجه مِن الصِّحة؛ لأنَّ الكمال يتنافىٰ مع النَّقْص، فتكون الطعون باطلة ولا بُدَّ، وهذا شيء يُدْرَك بشكل إجمالي من مجرد العلم بالكمال، ويعرف العلماء الراسخون وجه الردِّ التفصيلي علىٰ ذلك إذا أعطوا الشريعة حقَّها من التأمُّل والفهم.

العاشر: جمال ربَّانية الشريعة

لا شيء أعظم ولا أجمل وقعًا في النفس من استشعار أنَّ هذه الشريعة هي شريعة ربِّ العالمين الذي تألَّهُ له القلوب حُبًّا وتعظيمًا، وإذا استشعر الإنسان معاني أسماء الله الحسنىٰ كاسم: «الحكيم»، واسم: «الواسع»، واسم: «العظيم»؛ تجلَّتْ له آثار هذه العظمة والسعة، ورأىٰ آثار هذا العلم والحكمة التي لا تُحد ماثلةً في هذا التشريع.

وهذه الخاصية معلومة من كمال الشريعة؛ لأنَّ كمالها فوق قدرة البشر، فهم عاجزون عن الإتيان بنظام تشريعي فيه بعض خصائصها بشهادة تاريخ البشرية وحاضرها، هذه البشرية التي بات عقلاؤها يشهدون بأنَّ تطوُّرَها المزعوم صاحَبَه تراجع وفقر في مجال الأخلاق، وحتىٰ في التصوُّرات الكليَّة للوجود حيث اتَّجهتْ لانعدام المعنىٰ وضياع البوصلة.

وخاصيَّة ربَّانية الشريعة معلومة أيضًا من دلائل النبوة، التي من أعظمها معجزة القرآن، وأخلاق النبي ﷺ، والإخبار بالغيوب بأنواعها، والمعجزات الحسية الكثيرة التي حصلت له؛ كانشقاق القمر، وتكثير الطعام، وغيرها كثير مما تواترت به الأخبار تواترًا يفيد القطع.

ويترتَّب علىٰ هذه الخاصية: أنَّ الإنسان يُطيعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُسَلِّم له؛ لأنَّ هذا التشريع من عند ربِّ العالمين، الذي خلق هذا الوجود، وله جميع النِّعَم، وله الكمال الذي ليس معه نقص، فيجب أن يُقابَلَ هذا بالعبادة والتسليم والطاعة المطْلَقة التي لا تقييد فيها، وهذه عبادة لا تكون إلا لله الذي له الأمر، وله الكمال المطلق، فهو الذي يستحق إسلامَ النفس له والتسليمَ التام لأمره، والطاعةَ المطْلَقة

التي لا تُقيَّد بشيء، أمَّا البشر فطاعتهم مُقيَّدة، فهم إنَّما يُطَاعون في المعروف، كما قال ﷺ: (إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)[1].

ويترتَّب علىٰ هذه الخاصيَّة: أن نعتقدَ كمال هذا التشريع وحسنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، ونردُّ ما تشابه علينا إلىٰ المحكم، ونتَّهم فهومنا إذا ضعفت عن إدراك شيء من حكمة التشريع وكماله، والعاقل الذي يؤمن بربَّانية الشريعة وكمالها، ويرىٰ من آثار ذلك الشيء الكثير يردُّ ما غاب عن فهمه من حكمة التشريع إلىٰ ما شاهد منها، وهو الأكثر بشهادة العقول المنصفة.

وأخيرًا: فكل الخصائص العظيمة التي تظهر في التشريع راجعة إلىٰ كون هذه الشريعة من عند الله العليم الحكيم العظيم.

وبعد هذه النظرات الإجمالية علىٰ جمال التشريع، سنُحَلِّق في الرحلات القادمة لنعيش مع جمال بعض الجوانب التفصيلية في أبواب ومواضيع خاصَّة، نسأل الله أن ينوِّرَ بصائرنا بنوره.

مكتبة
t.me/soramnqraa

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٦٣) برقم: (٧١٤٥)، (كتاب الأحكام - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية)، ومسلم في صحيحه (٦/ ١٥) برقم: (١٨٤٠)، (كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية).

الرحلة السابعة

«جماليات رمضانية»

حديثنا في هذه الرِّحلة عن شهر محبوب، يشتاق المسلمون إلىٰ جماليَّاته، فرمضان من ساحات الجمال الفسيحة، ومن أجمل ما فيه:

- **أنَّه شهر الرَّحمة**، وللرحمة فيه مظاهر كثيرة؛ منها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفتح في هذا الشهر أبواب الجنَّة، وتُصفَّدُ فيه الشياطين[1]، ولهذا الفتح والتصفيد آثار يشهدها كثير من النَّاس، فهناك -إنْ صحَّ التعبير- جوٌّ إيماني تتيسَّر فيه العبادة ويزداد الاجتهاد فيها، واستشعار معانيها والتأثُّر بها.

وهذا النشاط الرمضاني جميل لما يتضمَّنه من استشعار حلاوة الإيمان، فالإنسان إذا زاد إيمانه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ جزاه عزَّ وجلَّ بحلاوة يجدها في قلبه، وهي من أجمل ما يجده الإنسان في هذه الحياة.

ومن جمال هذا النشاط الرمضاني: ما يُؤدِّي إليه من زكاء النفوس، فتكون أكثر إقبالًا علىٰ الخير، وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ

---

(١) انظر: جامع الترمذي (٢/ ٦٠) برقم: (٦٨٢)، (أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في فضل شهر رمضان)، وسنن ابن ماجه (٢/ ٥٥٩) برقم: (١٦٤٢)، (أبواب الصيام - باب ما جاء فِي فضل شهر رمضان)، كلاهما بالإسناد نفسه، ولفظ الحديث: (إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ: صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، ولله عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ).

الْمرْسَلَةِ)[1].

فينبعث السَّخَاء والجُود في النَّفْس بفضل الرحمة التي يفتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، وبنعمة الصِّلة بالقرآن، فيتولَّد من هذه الصِّلة: زكاء النفس، فتكتسب جمالًا، ولعلَّ هذا من أسباب اشتياق كثير من النَّاس لهذا الشهر؛ لأنَّهم ذاقوا حلاوة هذا الزكاء بأنفسهم، وجرَّبُوا تلك المشاعر الجميلة وعاشوا الجوَّ الذي نتج عن الرحمة الإلهية العظيمة.

- **جمال الإخلاص لله تعالىٰ في الصِّيَام**، فالإخلاص يتجَلَّىٰ في الصيام بصورة فريدة، بدليل ما جاء في الحديث القدسي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ)[2]، فيذكر بعضُ العلماءِ في اختصاصِ الصومِ بهذا الفضل، أنَّ الإنسان يمكنه أن يُصَلِّي ويُرائي بصَلَاته، ثُمَّ إذا كان في خلوة لا يُصَلِّي، أمَّا الصوم؛ فإنَّه يتحقَّق بالإمساك عن المفطِّرات من بداية اليوم إلىٰ نهايته، وهذا لا يطَّلِعُ النَّاس عليه في كل وقت، فلا يمكن أن يتحقَّق الصوم مع عدم الإخلاص؛ لسهولة الفطر بعيدًا عن أعين الناس.

وفي نسبة الصوم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جمال عظيم؛ فالله تعالىٰ يُعْلِنُ تلك النسبة بقوله: (فَإِنَّهُ لِي)، وكأنَّ في ذلك فرحًا إلهيًّا، ويقول أيضًا: (وَأَنَا أَجْزِي بِهِ)، فيُعلن أنَّه يتولَّىٰ الجزاء، وهذه طريقة جميلة في إعلان هذا الأمر، تُشعر بحبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذا العمل؛ فما أجمل أن يتصل العبد بخالق الوجود الذي خلقه وربَّاه بنعمه!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٨) برقم: (٦)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٣) برقم: (٢٣٠٨)، (كتاب الفضائل - باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٦) برقم: (١٩٠٤)، (كتاب الصوم - باب هل يقول إني صائم إذا شتم)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥٧) برقم: (١١٥١)، (كتاب الصيام - باب فضل الصيام).

- **في كل ليلة عتقاء**[1]، من جماليات شهر رمضان أنَّ لله تعالىٰ في كل ليلة منه عتقاءَ من النار، وحين يعلم العباد بهذا، فإنَّ قلوبهم تلوذ بالتضرُّع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واللجوء الصادق إليه؛ للفوز بالعتق.

- **جمال الافتقار إلىٰ الله**، إنَّ انغماس العبد في شعور الافتقار إلىٰ الله أمر في غاية الجمال، يظهر فيه تصديق العبد بالجزاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويظهر فيه إيمانه بالغيب، وأنَّه يرجو الله عزَّ وجلَّ، ويعلم أنه يُناجي ربًّا مُجيبًا يسمع ويُعطي ويتفضَّل.

إنَّ تعلُّق القلب بالله تعالىٰ مفتقرًا راجيًا لهو أمرٌ في غاية الجمال، لا سيما إذا استشعر الإنسان أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ذلك منه ويحبُّه، ولنتأمَّل هذا الحديث العظيم، الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ قال: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ)[2].

فالشأن في الاستغفار إذًا ليس في مجرد طلب المغفرة، بل في إيمان العبد واستحضاره بأنَّ له ربًّا يسمعه ويُجيبه ويغفر له، وكذلك في شعور العبد بالخوف حين يعلم أنَّه إذا لم يستغفر ويرجع إلىٰ الله عزَّ وجلَّ فإنَّه قد يُؤَاخذ بالذنب، والله تعالىٰ يحبُّ أن يرىٰ في عبده خوفَ غضبِه، ورجاء مغفرته، فيجزيه علىٰ ما قام في

---

(١) كما في حديث: (ولله عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ)، وقد سبق تخريجه، انظر: (ص١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٥) برقم: (٧٥٠٧)، (كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾)، ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٩) برقم: (٢٧٥٨)، (كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة).

قلبه من التصديق بالجزاء والإيمان بالغيب، وقد امتدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة المتقين الذين يهتدون، بأنَّهم يؤمنون بالغيب، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:١-٣].

- **رمضان الذي أُنزل فيه القرآن**، دلَّت آيات الصيام علىٰ أنَّ للقرآن خصوصيةً في هذا الشهر، قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)[1].

ففي رمضان تقوىٰ الصِّلة بالقرآن، وهي تولِّدُ كرَم النفس وجُودَها، وهذا في ذاته جمال، فخصلة الجود تنبني علىٰ تضحية العبد بحظِّ نفسه، وهذه التضحية هي من أسباب تقواه وطاعته وانطلاقه في مجالات الخير كلِّها، لأنَّ كلَّ ذلك مبنيٌّ علىٰ ترك حظَّ نفسه إيثارًا لما عند الله، وهذا زكاءٌ جميل.

والقرآن الذي يُولِّدُ هذا الأثر هو في نفسه جميل، في ألفاظِه، وفي صوتِ العبد الحسن به، وقبل ذلك هو جميلٌ في معانيه، ويكفي العبدَ جمالًا أنَّ هذا الذي تَقْوَىٰ صِلته به هو كلام الله عزَّ وجلَّ، وعندما تزيد عناية العبد بالقرآن في رمضان يكتسبُ من هذا الجمال جمال التأثُّر في قلبه، قال تعالىٰ في المؤمنين: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٨) برقم: (٦)، (بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٣) برقم: (٢٣٠٨)، (كتاب الفضائل - باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة).

وفي القرآن جمال المعرفة بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ من مواضيعه الكبرىٰ: تعريف العباد بربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فينشأ عن ذلك قوة الصِّلة به حُبًّا، وتعظيمًا، وخوفًا، ورجاءً.

والقرآن يُكسب العبد جمالًا في أخلاقه، كما وصفت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي ﷺ فقالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)[1].

- **فرح العبد بصومه**، ومن جماليات الشهر: ذلك الفرح الذي يغمر العبد عندما يُفطر، كما جاء في الحديث: (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ)[2]، وما أجمل أن يستشعر الإنسان الفرح بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن وفَّقه لطاعته مخلصًا صابرًا محتسبًا، ليجد بعدها تمام الفرحة بتمام هذه العبادة الجليلة مع فرحة الرِّي والشبع، راجيًا الفرح الأكبر يوم القيامة، فيَحضرُ في النفس معنىٰ استشعار النعمة والفرح بها، ومعنىٰ رجاء ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانتظار رضوان الله عزَّ وجلَّ عندما يلقاه العبد يوم القيامة، وهي فرحة عظيمة ليس بعدها فرحة، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرزقنا إيَّاها!

- **التكافل بين النَّاس**، ومن جماليات رمضان التي تتصل بما ذكرنا من الجُود والكرم: جمال تكافل الناس فيما بينهم، وتذكُّر الفقراء، الأمر الذي يُؤكِّده التشريع في إيجاب زكاة الفطر التي تُغني الفقير عن السؤال في يوم العيد.

- **الترابط الاجتماعي**، وهذه الجمالية تكاد تكون سمة عامَّة لوظائف الشهر، فالناس يجتمعون ويصطفُّون في صلاة التراويح بنظام، ذاكرين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/ ١٤٨-١٤٩) برقم: (٢٤٦٠١)، (مسند الصديقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٦) برقم: (١٩٠٤)، (كتاب الصوم - باب هل يقول إني صائم إذا شتم)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٨٥) برقم: (١١٥١)، (كتاب الصيام - باب فضل الصيام).

في صورةٍ هي غاية في الجمال، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور:٣٦].

وفي ذلك تشجيع للناس، إذ يُشَجِّع بعضهم بعضًا علىٰ زيادة العبادة والصلة بالله تعالىٰ وقيام الليل، كما أنَّه يشعرهم بعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما هو الأمر في سائر العبادات التي تقوم علىٰ الاجتماع كالعمرة والطواف، فمشهد العباد وهم مجتمعون خاشعون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو مشهد في غاية الروعة والجمال.

ونجد هذا الأمر متوَّجًا في النهاية بالمشهد الجميل في صلاة العيد التي يجتمع فيها الرجال، وكذلك النساء في مُصلاهن، والأطفال، فرحين بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالهداية لهذا الدِّين، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

وهذا الفرح يجمع الناس علىٰ أمرٍ مشترَكٍ بينهم، هو الفرح بالتوفيق إلىٰ عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيترابط المجتمع بناءً علىٰ هذا الهدف السامي.

ومن الجمال الظاهر ذلك اليوم تبادُل التهاني والتعبيرُ عن الفرح بكثافة، علىٰ ما يُرضي الله عزَّ وجلَّ، فيتكامل بذلك الفرح الجماعي، فيجتمع للناس فرحُهم بدينهم وفرحُهم بما أنعم الله عزَّ وجلَّ عليهم في دُنياهم، وفرحُ الفرد مع فرحِ الجماعة، وهذا في غاية الجمال.

ويشمل هذا الفرحُ الدِّينَ والدنيا والآخرة، فهو ليس فرحَ غفلةٍ وبُعدٍ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هو فرح بهذه العبادة والطاعة، مع ما فيه من فرحٍ دنيوي في الأكل والشرب والتهنئة والأُنس بين الناس ببعضهم، وشعور الإنسان بانتمائه لهذا المجتمع المسلم، وقيمة إدخال السعادة علىٰ النفس وعلىٰ الآخرين، وغير ذلك من المعاني الجميلة.

جماليات تشريعات رمضان:

الكلام فيما سبق هو في جماليات نفسية وروحية واجتماعية تظهر من تشريع عبادة الصيام، وما يتَّصل بها من العبادات في هذا الشهر، ولننظر الآن من زاوية الأحكام؛ فهذه العبادة لم تُتْرَكْ هكذا دون أن تُنظَّمَ بأحكامٍ ضابطة، وتشريع هذه الأحكام من مواضع الجمال، فَلْننظر في بعض السِّمَات العامَّة، والخصائص التشريعية التي تتجلَّىٰ في تشريعات هذا الشهر.

الأول: يُسْر التشريع

تبرز في آيات الصيام خاصِّية عظيمة من خصائص التشريع، وهي: اليُسْر، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن ذكر الرخصة في الفطر للمريض والمسافر: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فمن خلال أحكام الصيام يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ أنَّه يُريدُ اليُسْر إرادة عامَّة في كل التشريعات، ولاحظوا التأكيد هنا، فهو لا يُعبِّرُ فقط عن إرادة اليُسْر بنا، بل يُؤكِّد هذا بنفي إرادة العُسْر.

وفي آيات الصيام كثير من الإشارات إلىٰ هذا الأمر، ففي أوَّلها يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٤]، فهي أيام معدودة، ثم قال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، وهذا في الصوم الذي نُسِخ، وكان قبل نزول تشريع الصوم في كامل شهر رمضان، وبعد ذلك لـمَّا نزل تشريع الصوم في شهر رمضان لم يُكتفَ بذكر الرخصة في التشريع المنسوخ، بل كُرِّرتْ مرَّةً أخرىٰ فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ثم نكَّر هذه الأيام الأُخَر ولم يُحدِّدها؛ ليتسع الأمر للإنسان أن يقضي في أي وقتٍ من عامه، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ثُمَّ ذكر تعالىٰ أنَّه أباح الرَّفَث إلىٰ النساء في ليلة الصيام، وذكر أنَّ للإنسان أن يأكلَ ويشربَ ليلًا حتىٰ يتبيَّن له طلوع الفجر، وغير ذلك من الإشارات الكثيرة التي تُظهر تيسير الله عزَّ وجلَّ في هذه العبادة العظيمة.

إذًا؛ فخاصِّيَّة اليُسْر بارزة بشكل ملاحظ وعظيم جدًّا في عبادات رمضان.

الثاني: واقعية تشريع الصيام

تشريع الصيام مرتبط بواقع النَّاس ليس منفصلًا عنهم؛ لأنَّ أداءه مُستطاع، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وآيات الصيام تربطه بالحالة التي يكون فيها مستطاعًا، وتعذُرُ مَن لا يستطيع الصيام، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

الثالث: انضباط تشريعات رمضان

أتت أحكام الصيام معلَّقة بأشياء يُدركها الإنسان ويُطبِّق معها الحكم بيُسْرٍ وسهولةٍ، فنجد أنَّ دخول الشهر رُبِطَ برؤية الهلال إن حصلت، وإلا أتمَّ شهر شعبان، ولم يُعَلَّقْ بحسابات يصعب إدراكها علىٰ عامَّة الناس، ورخصة فطر المسافر عُلِّقت بالسفر نفسه، ولم تُعلَّقْ بمشقَّة السفر؛ لأنَّ المشقَّة معنًىٰ يصعبُ ضبطه، فإذا حصل لك السفر فلَكَ أن تُفطر.

الرابع: منهجية ومعيارية تشريعات رمضان

نجد أنَّ لدينا منهجًا ونظامًا كاملًا من الأحكام يُعالج كل الحالات بشمول، فالشهر المطلوب صومه مُحدَّد، ووقت بدايةِ الصيام من اليوم ونهايتِه واضح، وشُرع لنا حكم عام هو وجوب الصيام علىٰ الجميع، ثُمَّ شُرِعَتْ أحكام خاصَّة لمن لديهم أعذار، مع تحديد تلك الأعذار، ووضع وسائل التعويض لهم في أيامٍ أُخَر، والأشياء

المطلوب الامتناع عنها محدَّدة، وهي المفطِّرات، وقد ارتبط الامتناع عنها بوقتٍ له بداية وله نهاية؛ لتتحقَّقَ حكمة الصيام دون حصول الضرر.

ومن فضل أحكام التشريع: أنَّها تُعوِّدُنا علىٰ النظام، وعلىٰ معرفة الحدود والتفاصيل والترتيبات، والصيام نفسه يُعوِّدُ الإنسان علىٰ التنظيم في سلوكه وفي صفاته وسماته الشخصية، ويعوِّده علىٰ أن يحبس نفسه عن الأشياء التي يشتهيها؛ ليُحقِّقَ مصلحةً أعظم، وهذه صفة أصحاب العقول، وبتعلُّم ما يحتاج من الأحكام يتعوَّد علىٰ التعلُّم؛ ليصبح جُزءًا من عبادته وحياته.

والصوم يُقَوِّي في الإنسان جانب السلوك، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وهذا من شمول التشريع، فنجد أنَّ الصيام يربط أفعال الإنسان بالقِيَم وتهذيب السلوك، كما قال النبي ﷺ: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[1].

إذًا؛ أنت مُطالبٌ بأن تصوم، وأن تنظرَ إلىٰ عُمْقِ هذه العبادة، وتُدْرِكَ حكمتها، ويكون تصرُّفك مُتَّسِقًا مع هذه الحكمة، وهذا يُعطي الإنسان تفكيرًا منهجيًّا مُنَظَّمًا.

وإذا نظرنا إلىٰ تفاصيل ما ورد في تشريعات رمضان، وجدنا أنَّها معيارية، أي: أنَّها مردودةٌ إلىٰ قواعدَ عامَّة وتفصيلاتٍ خاصة، حتىٰ نستطيعَ أن نحكم علىٰ الوقائع والجزئيات والتفاصيل، وكل ذلك بيِّنٌ في أحكام الصيام التفصيلية.

الخامس: مرونة تشريعات رمضان

تظهر هذه المرونة في تيسير الصيام وربطه بأوقاتٍ مُعيَّنة، وتوافُقه مع قُدرات الإنسان، ووجود الرُّخَص والاستثناءات، والتفريق بين أحوال الناس: الصغير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٦) برقم: (١٩٠٣)، (كتاب الصوم - باب مَن لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم).

والكبير، والمكلَّف وغير المكلَّف، ومَن له عُذر مثل المريض والمسافر، ومن ليس له عذر، فهو لم يأتِ بحُكْمٍ واحد للجميع، بل أتىٰ بنظام مرن يمكن التكيُّف معه.

السادس: شمول تشريعات رمضان

نجد هذا الشمول في القِيَم التي يغرسها الصيام فينا، كقيمة التقوىٰ التي جاءت في الآية، وقيمة الصبر التي هي أساس للعبادات عامَّة، وقيمة تنظيم النفس، وقيمة التعلُّم، وقيمة العناية بالجسد والعناية بالروح، فهو لا يذهب بالعناية بالروح إلىٰ ما يشقُّ علىٰ الإنسان ويُوقعه في الضرر، ولا يذهب في العناية بالجسد إلىٰ حدِّ تضييع الروح وإهمال تزكية النفس.

ونجد في جانب الأفعال شمولية أخرىٰ؛ فلا يُطالب الإنسان بالكفِّ عن محظورات الصيام فقط، بل يُطالب بأن يكفَّ عن الزور وعن الحرام عمومًا[1]، مع الإتيان بالطاعات من الأقوال والأفعال الحسنة المتنوِّعة التي شُرِعَتْ في هذا الشهر.

كما نجد شمولًا في الأوقات، فَلِلنَّهار عناية، ولليل عناية، ففي النَّهار عبادة الصيام، وفي الليل عبادات أخرىٰ؛ مثل: قيام الليل والسحور.

وفي النهار نجد حَبْسًا للنفس عن الأكل والشرب، وهذا يحتاج إلىٰ شيء من الصبر، ثم نجد النفس في الليل تأخذ إجمامًا وراحةً في الطعام والشراب، مع استثمار الأوقات في تغذية الروح من خلال الصلاة وقراءة القرآن، فرمضان دورةٌ إصلاحية للنفس، وللمجتمع من وراء ذلك.

---

(١) كما في قول النبي ﷺ: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)، وقد سبق تخريجه، انظر: (ص١٣٨).

السابع: توازن تشريعات رمضان

نجد في رمضان موازنةً بين حاجات النفس وحاجات الجسد، وموازنةً في تهذيب النفس، ولذا جاء في الحديث أنه إذا سابَّ الإنسان أحد أو شاتمه فليقل: (إِنِّي صَائِمٌ)[1]، فهناك تهذيب للنفس مع نفسها بالكفِّ عن المحظورات، وكذلك في التعامل مع الغير بالكفِّ عن الأذىٰ، وعن قول الزور، ونحو ذلك.

وهناك موازنة بين جانب التقرُّب إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، وتزكية النفس بالصيام، وبين حقوق الآخرين؛ فنجد أنَّ هناك رخصة بترك الصوم للمُرضع إذا كانت تتضرَّر أو يتضرَّر رضيعُها، وفي هذا مراعاة لوجود أطراف أخرىٰ في المجتمع غير هؤلاء المكلَّفين الكِبَار.

كما جُعل الصيام محدودًا بمُدَّة من اليوم مع وقوعه في شهر مُعيَّن، وفي هذا موازنة بين مصلحة إصلاح النفس في هذه الفترة وبين مصالح أخرىٰ ترتبط بقوة الجسد، وحاجة الإنسان في اعتماده علىٰ الطعام، خاصَّةً عندما يرتبط بأعمال بدنية؛ إمَّا لكسب العيش، وإما للدفاع عن الدِّين بالجهاد ونحوه.

فلذلك لم يجعل الإسلام الصيام مدىٰ الدَّهر، ولم يُخْلِ الدَّهر منه، بل جعل له شهرًا واجبًا، وحثَّ علىٰ التطوُّع في صيام ستٍّ من شوَّال، حتىٰ تكون كصيام الدَّهر في الأجر؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، والشهر بعشرة أشهر، فيكتمل بمجموع ذلك عامٌ كامل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٤) برقم: (١٨٩٤)، (كتاب الصوم - باب فضل الصوم)، بلفظ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥٧) برقم: (١١٥١)، (كتاب الصيام - باب حفظ اللسان للصائم).

الثامن: التكامل في تشريعات رمضان

نجد أنَّ التشريعات تتكامل مع بعضها، فالشرع حثَّ علىٰ السحور وأكَّد عليه، وهذا يتكامل مع وجوب الصوم أثناء النهار، فلم يترك للعبد الأمر ليُحدِّد هل الأفضل أن يأكل أو لا يأكل، بل حثَّتْهُ الشريعة علىٰ ذلك، حتىٰ يكون مستعدًّا لما قد يشقُّ عليه في بدنه، بل قد يخلُّ بالمصالح العامَّة؛ لأنَّ الإنسان إذا ضعفَ وضعفتْ قوَّته أخلَّ بواجبات تعود إلىٰ أسرته ومجتمعه، وفي الحديث: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ)[1]، وقد كان في زمن النبي ﷺ أذانٌ أوَّل يُنبِّه علىٰ قُرب وقت الفجر[2].

ويُلاحظ التكامل بين وظائف رمضان وبين الحثِّ علىٰ الأخلاق عمومًا، وضبط النفس والصبر والالتزام بحدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقيمة التسليم لله عزَّ وجلَّ، فهذه الأشياء تُطلب من الإنسان في كامل السنة، ويأتِي هذا الشهر ليُقدِّم ما يشبه الدورة العملية، فيتكامل تشريع الصيام مع القيم العامة التي طلبها الشرع وغرسها، فالأمر فيه تغذية متبادلة بين هذا وذاك، وهذا من التكامل في التشريعات.

بل إنَّ التكامل يتعدَّىٰ جانب التشريع نفسه إلىٰ الجوانب الاجتماعية، فنجد من آثار هذا التشريع: التكامل في الأدوار داخل الأُسر، فهناك مَن يرعاها من ناحية توفير النفقات، وهناك مَن يقوم بحاجات البيت وتربية الأبناء، ونحو ذلك، والصيام يُثير

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤)، (كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله).

(٢) كما في قول النبي ﷺ: (لاَ يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ أَوْ أَحَدًا مِنْكُمْ أَذَانُ بِلاَلٍ مِنْ سَحُورِهِ، فَإِنَّهُ يُؤَذِّنُ أَوْ يُنَادِي بِلَيْلٍ، لِيَرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَلِيُنَبِّهَ نَائِمَكُمْ، وَلَيْسَ أَنْ يَقُولَ الْفَجْرُ أَوِ الصُّبْحُ). أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٧) برقم: (٦٢١)، (كتاب الأذان - باب الأذان قبل الفجر).

هذا النوع من التكامل ويدفع به إلىٰ الذروة حتىٰ يظهر ويتجدَّد، وحتىٰ الأسر التي عندها نوع من الإهمال في هذا الجانب وفيها تفكُّكٌ وعدمُ التقاء، نجد أنَّ الصيام ورمضان يجمعُها ويُحيي فيها هذه المعاني.

هذه إذًا مجموعة من الجماليات التي تظهر إذا تأمَّلنا في خصائص هذا التشريع العظيم.

التاسع: ارتباط التشريع بالكُلِّيَّات والمعاني والقواعد عامة

فلو نظرنا إلىٰ هذا التشريع من هذه الجهة، لوجدنا ذلك بارزاً في الصيام، ومما يُبرز ذلك القواعد الفقهية، فإذا أخذنا -مثلًا- حديث النبي ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)[1]، وهو يدلُّ علىٰ القاعدة التي يُعبَّر عنها بـ «**الأمور بمقاصدها**»، نجد أن قصد العبد هنا له دور عظيم في الصيام، فهو عبادة لا مجرَّد إمساك للحِمْية، وحضور نيَّة التعبُّد لله عزَّ وجلَّ واضح، بدليل حكم عدم صحَّة الصيام إلا بنيَّة من الليل.

وكذلك قاعدة: «**اليقين لا يزول بالشك**»، فهي تعالج ما يقع لبعض الناس من وسوسة تطرأ أحيانًا علىٰ ذهنه: هل أكل شيئًا؟ هل دخل الماء إلىٰ جوفه وهو يتمضمض؟ وغير ذلك من الاحتمالات التي لا تستند لدليل أو واقع ملموس، فإذا عرف هذه القاعدة: «**اليقين لا يزول بالشك**» استطاع أن يُطبِّقَ الأحكام بيُسْرٍ، دون أن يفتح علىٰ نفسه مجالًا للشيطان.

أيضًا قاعدة: «**المشقَّة تجلب التيسير**»، يتفرَّع عنها قواعد كثيرة تتعلَّق بالرُّخص والحاجات والضرورات، وهي كثيرة في أحكام الصيام، وتقدَّم معنا أنَّ آية الصيام أشارت إلىٰ ذلك في أكثر من موضع.

---

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص١٠٧).

وكذلك قاعدة: «**لا ضرر ولا ضرار**»، يتفرَّع عنها قواعد تتعلَّق بالمصالح والمفاسد والترتيبِ بينها، والصيامُ بطريقته وترتيباته وما فيه من أعذار ورخص يُحصِّل المصلحة المقصودة منه، دون أن يُوقع المكلَّف في ضرر.

ونجد في تفاصيل أحكام الصيام ما يُظهر لنا منهجية في الترتيب بين المصالح والمفاسد؛ فمثلًا: جاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال لأحد الصحابة: (وَبَالِغْ فِي الِاسْتِنْشَاقِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا)[1]، فجعل الاحتياط الذي يحقِّق مصلحة التعبُّد بالصوم علىٰ الوجه الذي أمر الله به أولىٰ من الإتيان بمصلحة المبالغة في الاستنشاق، وهي ليست أَوْلىٰ حالَ الصوم مع كونها غيرَ واجبة، وقد تخِلُّ بالمصلحة الأَوْلىٰ، فيُقدَّم الواجب علىٰ المستَحَبِّ، وهذا يُعلِّمُنا كيف نُرتِّب الأولويات.

وكذلك قاعدة: «**العادة مُحكَّمة**»، وهي تُساعدنا في تنزيل الحكم علىٰ الواقع بما يُحقِّق مقصد الشرع؛ فنجد أنَّ الشرع في رمضان اعتبر عادة الناس في دخول الشهر وخروجه، وهو أمرٌ عامٌّ يتعلَّقُ بعموم الناس، فربط الحكم بما يتوافق مع عاداتهم وقُدراتهم العامَّة، ولم ينظر فيه إلىٰ الأحوال الخاصَّة، ولذلك قال ﷺ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا، يَعْنِي: مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ)[2]، فاعتُمد علىٰ رؤية الهلال التي يستطيعها كل إنسان في كلِّ زمان، وهذا يجعل الأمر مُيسَّرًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في شعب سننه (١/ ٥٤) برقم: (١٤٢)، (كتاب الطهارة - باب في الاستنثار)، والترمذي في جامعه (٢/ ١٤٦) برقم: (٧٨٨)، (أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في كراهية مبالغة الاستنشاق للصائم)، والنَّسائي في شعب سننه (١/ ٢٨٧) برقم: (٩٠)، (كتاب الطهارة - باب المبالغة في الاستنشاق)، وابن ماجه في سننه (١/ ٢٦٢) برقم: (٤٠٧)، (أبواب الطهارة وسننها - باب المبالغة في الاستنشاق والاستنثار).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٧-٢٨) برقم: (١٩١٣)، (كتاب الصوم - باب قول النبي ﷺ: لا نكتب ولا نحسب)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢٣-١٢٤) برقم: (١٠٨٠)، (كتاب الصيام - باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال).

بروز مقصد التشريع العام في عبادة الصيام:

من جمال التشريع ارتباطه بالمعاني والمقاصد، فنجد أنَّ المقصد الأكبر من عموم التشريعات، هو: تحقيق العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويظهر ذلك بعمق في عبادة الصيام، التي يتجلَّىٰ فيها معنىٰ التعبُّد الخالص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك نجد أنَّ الله ﷻ قال في الحديث القدسي: (إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي)[1].

ارتباط الصيام بالضرورات الخمس:

نجد أنَّ الصيام مرتبط بالضرورات الخمس التي جاءت التشريعات بتحقيقها وحفظها وحمايتها، فهو مرتبط بحفظ الدِّين من جهة: أنَّ الصيام شعيرة تعبُّديَّة، وركنٌ من أركان الإسلام، فإقامته حفظٌ للدِّين من هذه الجهة.

وفيه: مراعاة لحفظ النفس، من جهة: أنَّ وقته محدود، بحيث لا يتضرَّر الإنسان، وأنَّ هناك رُخَصًا في الحالات الخاصَّة، وقد رُتِّب هذا بعناية حتىٰ لا يخلُّ الصيام بحفظ الجسد أو العقل.

وللصيام صِلة بحفظ العرض والمال، من جهة: أنَّ الصيام مدرسة لضبط النفس وتهذيبها وتحقيق التقوىٰ، فيْقَوىٰ عند الإنسان تعظيم حرمات الله، ومن ذلك ما يُخلُّ بحفظ العِرض من العلاقات المحرَّمة، والتعدِّي علىٰ الأموال، أو التبذير فيها وتضييعها، فيتحقق بهذا مقصد حفظ المال من جهة: الحماية والمنع، كما يتحقَّق من جهة: البناء، بتشجيع تداول المال، وتوزيع الثروة، مِن خلال فرض زكاة الفطر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٨) برقم: (١١٥١)، (كتاب الصيام - باب فضل الصيام).

خاتمة القول: يتبيَّن لنا من كلِّ ما سبق أنَّ تشريعات رمضان نظام عظيمٌ محكَمٌ مُتقن، فيه شمول وعمق، وتناسق وتكامل، فيه مِعيارية ومرونة في الوقت نفسه، فيه منهجية وانضباط وواقعية واتزان، وكلُّ هذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذا التشريع ليس من عند بشر، وإنَّما هو من عند العليم الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

جاء هذا التشريع بالأحكام المتَّزِنَة المتسقة مع ما تستحسنه العقول السليمة، ووجَّه إلىٰ المقاصد السامية الحسنة، ووازن بين مختلف المطالب، وأوجد التكامل بينها، مع انضباطه بالقواعد العامة والمنهجيات والأحكام المعياريَّة.

وهذا واضح وبارز في الصيام، كما هو في سائر الأحكام الشرعية، وسيأتي مزيد إبرازٍ لذلك عند الحديث عن تشريع المعاملات المالية.

الرحلة الثامنة

«جمال تشريع المعاملات المالية»

يُقصد بالمعاملات المالية: تعامل الناس في الأموال بيعًا وإجارةً وهِبةً وإعارةً وقرضًا، وغير ذلك من المعاملات المعروفة. وللشرع نظام عظيم متكامل ذو مبادئ وكليَّاتٍ ومقاصدَ وتفاصيلَ تتعلَّق بهذه المعاملات، سنحاول أن نستعرض طائفة من جمالياته في هذه الرحلة بعون الله[1].

لعلَّه من المناسب أن نمر في رحلتنا هذه علىٰ محطتين، لنتحدث في أولهما عن الغايات التي أرادتها الشريعة في تنظيم المعاملات المالية، ويظهر من ذلك المقاصد العامة لهذا النظام وخطوطه العريضة، ونعرض في ثانيهما الخصائص الموجودة في هذا التنظيم، وسيُبرِز لنا ذلك محاسنَ هذا التشريع وكمالَه ويطوف بنا في بعض جمالياته.

(١) سيقتصر الحديث على المعاملات المالية بهذا المعنى فقط، ولن يتناول الحديثُ النظامَ المالي في الإسلام من جهة الاقتصاد والسياسات المالية، وإن كانت أحكام التعامل المالي بالمعنى الذي سنركز عليه مرتبطة به ومؤثِّرة فيه.

المحطة الأولى

الغايات والمقاصد

لا أحسنَ من أن نستلهم تلك المقاصدَ من نصوص الشريعة نفسها، ومن أهم النصوص الواردة التي ترسم المقاصد الكبرىٰ في باب التعاملات المالية وترجع إليها أغلب المقاصد الأخرىٰ، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

فلتحقيق العدل والإحسان ترجع مأمورات الشرع، ولمنع الظلم ترجع منهيَّاته، وأحكام التعاملات قائمة علىٰ ذلك.

ومن أهم تلك النصوص أيضًا؛ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

فنهىٰ الله تعالىٰ في هذه الآية عن أكل المال بالباطل، وأباح التجارة التي تكون عن تراضٍ بين المتعاملين، وعلىٰ هذا تدور أحكام الشريعة في هذا الباب؛ فهي راجعة إلىٰ تحصيل ما يُحقِّق التراضي، وإلىٰ مَنْع أَكْل المال بالباطل بالربا والغَرَر- وسيأتي الكلام في معناهما لاحقًا- والضرر، وكل ذلك غايته تحقيق العدل ومنع الظلم، يضاف إليه ما يرجع إلىٰ الإحسان مما هو من قبيل المستحب في التعاملات، من الهبة والقرض الحسن والإعارة والإقالة وغيرها.

وهنا لا بُدَّ من الانتباه لأمر جليل القدر لا يصح أن نمرَّ عليه سريعًا دون وِقفة، وهو تأكيد الشريعة علىٰ تحقيق التراضي وتحريمها أكل المال بالباطل، فقد يَظُنُّ الظانُّ أنَّه أمرٌ بدهي لا ميزة فيه؛ ولكن الناظر في أحوال مَن لا ينطلقون من الشريعة في التعاملات يجد أنَّ كثيرًا من تعاملاتهم تُخِلُّ بتحقيق التراضي، وتتفنَّنُ في أكل المال بالباطل! فهم إنَّما يُركِّزون علىٰ أجزاء من التراضي لا تكفي، ويلجون بطرق ملتفة إلىٰ أكل المال بالباطل، ورُبَّما عدُّوا ذلك مهارة يتباهون بها!

لقد جعلت الشريعة التراضي أساس البيع، كما في الحديث: (إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ)[1]، وتعمَّقت في تحقيق التراضي إلىٰ حدِّ إتاحة التراجع عن البيع بعد وقوعه مباشرة ما دام المتعاقدان مجتمعَين في مجلس التعاقد، وحثَّتْ علىٰ البيان، وحرَّمت الغش، ففي الحديث: (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّىٰ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)[2].

ومنعت الشريعة التعاملات التي تكون عاقبتُها مجهولة؛ لأنَّها -وإن بدأت بالتراضي- تنتهي بالإخلال به وأكل المال بالباطل: إمَّا لعدم تحقُّق القدرة علىٰ تسليم الشيء الذي بُذل لأجله العِوَض، وإما لعدم وضوحه وقت التعاقد، كبيع المسروق، والمفقود، وغير المملوك، وبيع المجهول، وهذه هي صور ما يُعرَف بالغَرَر، وقد نهىٰ عنه النبي ﷺ[3]، وهو شبيه بالقِمار الذي يدخل فيه الإنسان برضا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ٣٠٥) برقم: (٢١٨٥)، (أبواب التجارات - باب بيع الخيار)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٣٤٠-٣٤١) برقم: (٤٩٧٢)، (كتاب البيوع - باب البيع المنهي عنه - ذكر العلة التي من أجلها زجر عن هذا البيع).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٨) برقم: (٢٠٧٩)، (كتاب البيوع - باب إذا بيَّن البيعان ولم يكتما ونصحا)، ومسلم في صحيحه (٥/ ١٠) برقم: (١٥٣٢)، (كتاب البيوع - باب الصدق في البيع والبيان).

(٣) انظر: صحيح مسلم (٥/ ٣) برقم: (١٥١٣)، (كتاب البيوع - باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر).

زائف يُحرِّكُه الطمع في أمر محتمل غير متحقِّق، إلا أنَّ القِمار يكون في المسابقات، والغَرَر يكون في المعاوضات.

ومنعت الشريعة أخذ المال دون عِوَض حقيقي، فحرَّمت أخذ المقابل علىٰ تأخير الدَّيْن فقط، وهو ما يعرف بربا الدَّيْن؛ لأنَّ المرابي إنَّما يأخذ الزيادات علىٰ مجرد انتظار إرجاع دينه، ولا يعمل ما يستحق عليه ربحًا، ولا يملك شيئًا يُباع في هذه المعاملة، لنقولَ إنَّه تحمل مخاطر في ذلك المملوك ثُمَّ باعه وربح فيه، فالمرابي في الحقيقة يهرب من العمل، ومِن تحمُّل المخاطر ليوقع كل ذلك علىٰ المدين وحدَه، وحتىٰ يحقِّق المرابي ذلك فإنَّه يتَّجه إلىٰ تصرُّفات يُقصد بها الإحسان في الأصل؛ مثل: القَرْض، وإنظار المعسر، لكنه يعكس مقاصدها، فبدلًا من سلوك طُرُقِ الرِّبْح المشروعة المتضَمِّنة للمشاركة الحقيقية بالمال أو العمل، التي تُؤَدِّي إلىٰ شيوع الأموال وتداولها وتعميم نفعها بالتراضي، يَعْدِلُ المرابي عن ذلك إلىٰ طريق يجعل الخسارة والعمل في جانب المدِيْن وحدَه، وهذا مخالف للعدل، ضار بالمدِيْن والمجتمع، وما يؤخذ عليه من ربا هو أكل للمال بالباطل.

وقد تفرَّعت معظم أحكام المعاملات من العدل والإحسان، وتحقيق التراضي ومنع أكل المال بالباطل، وتحريم الربا والغَرَر، حتىٰ قيل إنَّ منهيات الشرع في هذا الباب ترجع كلُّها إلىٰ الربا والغَرَر والضرر، ويرجع الضرر في بعض صوره إلىٰ الربا والغَرَر؛ لأنَّهما حُرِّمَا لما فيهما من ضرر وظلم، ويرجع في صور أخرىٰ إلىٰ مبدأ العدل العام، وذلك في مثل منع بيع الرجل علىٰ بيع أخيه، ومنع الاحتكار، وقد جعلت الشريعة منع الضرر أصلًا كبيرًا في الشرع لمنافاته العدل، فلا ضرر ولا ضرار، كما تقول القاعدة الفقهية التي رُوِيَتْ حديثًا عن النبي ﷺ[1].

---

(١) انظر: سنن ابن ماجه (٣/ ٤٣٠) برقم: (٢٣٤٠)، (أبواب الأحكام - باب من بنى في حقه ما يضر بجاره)، موطأ مالك (١/ ١٠٧٨) برقم: (٢٧٥٨)، (كتاب الأقضية - القضاء في المرفق).

المحطة الثانية

الخصائص

ونبدأ فيها بمحور في خصائص الخطاب التشريعي، ثم محور في خصائص التشريع.

المحور الأوَّل: خصائص الخطاب التشريعي

من مزايا الخطاب التشريعي في الإسلام أنه يُبيِّنُ الأحكام مع تقرير المعاني المؤثِّرة والقواعد الكليَّة، بحيث نستطيع أن نستمدَّ الأحكام من هذه المعاني والقواعد، مع بيان الحقائق والموازين المعنوية الصحيحة؛ مثل: بيان حقيقة المال والميزان الصحيح لنمائه، والعناية بغَرْسِ القِيَم في النُّفُوس، والتأثير عليها بالوعظ والوصف البليغ، في شمولٍ وعمقٍ وقوةِ تأثيرٍ ليس لها نظير.

الأول: نموذج قرآني

ولننظر في الصفحة رقم: [٤٧] من المصحف؛ لنرىٰ كيف عالج القرآن موضوع الربا، ولنلاحظ كثافة المضامين الجميلة العظيمة في هذه المجموعة من الآيات.

- **السياق والتنفير**: تكلَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل آيات الربا عن الإنفاق في سبيله، ثمَّ شَبَّه آكل الربا بالذي: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، في صورة هي غاية التنفير، فبعد الصورة الحسنة للمنفق، انتقل التصوير إلىٰ صورة المرابي الدنيئة، مما يُشعِر بالنفور من هذا الحال، وهذا من بلاغة القرآن.

- **سبب تحليل البيع وتحريم الربا:** ثُمَّ نجد أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ردَّ تسوية المرابين بين البيع والربا؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وأشار بعض أهل العلم إلىٰ أنَّ وجه تشبيه المرابي بالذي يتخبَّطه الشيطان: أنَّ مَن يُسَوِّي الربا والبيع لديه تخبُّط في عقله، فناسبه هذا التشبيه.

ونلحظ أنَّ الله سبحانه عندما ردَّ التسوية بين البيع والربا، نصَّ علىٰ أنَّه سبحانه هو الذي حرَّم الربا، وهذا يغرس أنَّ الأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب أن يُقابَل بالتسليم والقبول، والثقة به سبحانه وبأحكامه.

وبما أنَّ السياق هو سياق ردٍّ علىٰ هؤلاء المعاندين الذين يتخبَّطون، فربما كان من المناسب -والله أعلم- ألَّا يُدخل معهم في شرح تفصيلي مباشر لحكمة تحريم الربا من باب التأديب لهم، ولكن جاءت في الآيات بعدها إشارة لهذه الحكمة بصورة انفصل فيها المقامان عن بعضهما، فنلاحظ في آية: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]، إشارةً -بعد ذكر التوبة- إلىٰ أنَّ الزيادةَ التي تُؤخذُ زيادةٌ مُجحفة وظالمة، لذلك يقال في تعريف الربا أنَّه: (زيادة لا يُقابلها عِوض)[1].

وربما كان في عدم تفصيل الفُروق إشعارٌ بالتهويل والتفخيم؛ أي: أنَّ الفرق بينهما واضح جدًّا؛ فكيف يسوُّون بينهما؟ وأهل الجاهلية يعلمون أنَّ الربا يؤول إلىٰ إرهاق المعسرين، ومضاعفة الديون عليهم، لذا جاء في موضع آخر من القرآن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران:١٣٠].

---

(١) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٤/ ١٤٣).

- **تنوُّع الأساليب وتعدُّد جوانب المعالجة:** نُلاحظ أنَّ الآيات مَزَجَتْ في بيان الحُكم بين التشبيهات والصور البيانية، وبين التخويف بذِكْر النار والخلود فيها، ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وتناولت كذلك جانب الدنيا، لتبيِّن للإنسان الذي يطمع في نماء المال وبركته، أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَمْحَقُ الربا ويُربي الصدقات ويُنمِّيها، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، ثُمَّ أشارت إلىٰ أنَّ الربا من الجحود، وعظَّمت الإثم الذي فيه، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فهو يؤدي إلىٰ خسارة حبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من أعظم العذاب.

- **العودة لأهل الحال والمآل الطيب:** ثُمَّ ترجع الآيات مرة أخرىٰ إلىٰ ذكر الحال الطيب، حتىٰ تُحْدِثَ مزيدًا من التباين في النظر، ويعودَ السياق بالصورة الجميلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٧].

- **خطاب المؤمنين بالأمر بالتقوىٰ وتَرْك الربا وجَعْل ذلك من مقتضيات الإيمان:** ثُمَّ التفت الخطاب في تنويعٍ بديع إلىٰ المؤمنين، بأن يتقوا الله ويذروا ما بقي من الربا إن كانوا مؤمنين، فالقضية قضية إيمان.

- **الإعلام بالحرب من الله ورسوله علىٰ من لم يتبْ:** ثُمَّ عاد التخويف مرة أخرىٰ، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٩].

- **للتائب رأس ماله والإشارة للحكمة:** ثُمَّ حكم سبحانه لمن تاب برأس المال، وسمَّىٰ الزيادة ظلمًا، وفي ذلك إشارة إلىٰ حكمة تحريم الربا.

- **إنظار المعسر والحث علىٰ الأكمل:** ثُمَّ ذكرت الآيات إنظار المعسر؛ لأنَّ الربا كثيرًا ما يكون وسيلة للتسلُّط علىٰ المعسرين بتحميلهم الزيادات المضاعفة، كما قال

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

- **الختام بذكر يوم الحساب العادل**: وبعد أن بيَّنت الآيات فضل إنظار المعسر حثَّت علىٰ الأكمل، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وحتىٰ تنهض النفوس لمثل هذا المقام الأكمل وتلتزم ما قبله من الأمر والنهي، خُتم البيانُ بذكر يوم الرجوع إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فهو اليوم الذي سَيُجازَىٰ فيه العباد بأعمالهم.

وفي هذا تحريك عظيم للنفوس، فانظروا كيف اعتنىٰ القرآن بهذه القضية، فلا غرابة أن جاءت السُّنَّة بتسميتها بالكبيرة، وفصَّلت أحكامها تفصيلًا عظيمًا.

الثاني: حديث السُّنَّة عن المعاملات المالية

سأعرض هنا لبعض الأصول المهمَّة التي أبرزتها السُّنَّة في أحكام المعاملات مما يبرز معالم الخطاب التشريعي[1].

الأصل الأوَّل: الحث علىٰ الكسب الحلال وإعلاء قيمته: فقد سُئِلَ النبي ﷺ عن أطيب كسب الرَّجُل وأفضله؛ فقال: (عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ)[2]، وهذا التوجيه النبوي يبرز عناية السُّنَّة بغرس القِيَم، وبناء تصرفات العباد عليها.

الأصل الثاني: تحقيق التراضي وإعلاء قيمة الصدق والبيان: يقول النبي ﷺ: (إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ)[3]، وقد جاء تحقيق هذه القضية في السُّنَّة كثيفًا ومتنوعًا،

---

(١) سأكتفي بجملة من أهم النصوص من كتاب: «بلوغ المرام في أدلة الأحكام».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٠٢) برقم: (١٧٢٦٥)، (مسند الشاميين - حديث رافع ابن خديج).

(٣) سبق تخريجه، انظر: (ص ١٥٠).

ومن ذلك: إعلاء قيمة الصدق والبيان الذي يصبُّ أيضًا في تحقيق التراضي، في مثل قوله ﷺ: (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّىٰ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)[1]، ويُقابل هذا الحث: نهيٌ عمَّا يُخِلُّ به، كقوله ﷺ: (وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)[2]، وقوله: (لاَ تُصَرُّوا الإِبِلَ وَالْغَنَمَ)[3]، والتصرية هي جمع اللبن في ضرع الإبل أو الغنم؛ ليبدو غزيرًا، خِلافًا للواقع.

وقد ذهبت السُّنَّة إلىٰ أبعد من هذا، فشرعت خيار المجلس، ويُقصد به: إعطاء خيار التراجع عن البيع بعد أن يتم وقبل أن يتفرَّق البائع والمشتري بأبدانهما من مجلس البيع، وفي هذا مراعاة لطبيعة الإنسان، فربما تختلف طريقة تفكيره بعد عقد البيع كعادة البشر، فيُعطَىٰ فرصة أن يتراجع في مدة بقاء المجلس، فإذا تفرَّقَا لَزِمَ البيع، وهذا يُؤكِّد التراضي.

الأصل الثالث: تحقيق العدل ومنع أكل المال بغير حق: ركَّزت السُّنَّة علىٰ تحقيق العدل، ومنعت كلَّ ما يُؤدِّي إلىٰ أكل المال بغير حق، وقد مرَّ في حديثنا عن المقاصد الكلام عن ربط الربح بالضمان، وما لذلك من علاقة كبيرة بالعدل، ويأتي المزيد حول ذلك في وقفة ضمن الكلام عن التكامل.

ومن تحقيق السُّنَّة للعدل: تحريم الربا والتشديد فيه وتفصيل أحكامه، وقد تناولت السُّنَّة ضمن ذلك: ربا القروض الذي يكون في الزيادة المشروطة لتأخير

---

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص١٥٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٩) برقم: (١٠١)، (كتاب الإيمان - باب قول النبي صلى الله عليه تعالى وسلم: «من غشنا فليس منا»).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٧٠) برقم: (٢١٤٨)، (كتاب البيوع - باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم)، ومسلم في صحيحه (٥/ ٤) برقم: (١٥١٥)، (كتاب البيوع - باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه وسومه على سومه).

الدَّيْن، وربا البيوع الذي يكون في بيع الأصناف الربوية الستة، وما يأخذ حكمها، وبيَّنت المخرَج الصحيح من الربا، وحرَّمت الحيَل.

ومن تحقيق السُّنَّة للعدل: تحريم الغَرَر؛ لأنَّه يؤدي إلىٰ أكل المال بالباطل، وقد سبقت الإشارة إلىٰ معناه في حديثنا عن المقاصد.

الأصل الرابع: تحريم ما يؤدي للضرر: عالجت السُّنَّة هذا الموضوع بشمول، فوضعت القاعدة العامَّة: (لا ضرر ولا ضرار)، ثُمَّ نصَّت علىٰ تحريم تعاملات متنوعة يقع فيها الضرر، فحرَّمت تلقي الرُّكبان؛ وهو: أن يتلقَّىٰ شخصٌ مَن جاء ببضاعته إلىٰ السوق فيشتريَها منه بثمن بخس، وقد جعلت له السُّنَّة الخيارَ في رد السلعة وإلغاء البيع، كما في الحديث: (فَإِذَا أَتَىٰ سَيِّدُهُ السُّوقَ فَهُوَ بِالْخِيَارِ)[1].

ومنعت السُّنَّة: الضرر علىٰ أهل السوق، فحرَّمت بيع الحاضر للباد، بحيث يتصدَّىٰ أشخاصٌ لمن يأتون للبيع في السوق، فيجعلون أنفسهم سماسرة لهم، ويرفعون سعر سِلَعِهم علىٰ أهل السوق فوق ما يطلبه أصحابها ليحقِّقُوا مكاسب زائدة لأنفسهم، فيتضرر التُّجار من غلاء الثمن، ويقل ربحهم بعد ذلك.

وحرَّمت السُّنَّة: التسعير لما فيه من إخلال بحرِّيَّة التصرف، فعندما طلب البعض من النبي ﷺ التسعير قال: (إِنَّ اللهَ هُوَ الْمسَعِّرُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الرَّازِقُ)، ثُمَّ قال: (وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَىٰ اللهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ)[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٥) برقم: (١٥١٩)، (كتاب البيوع - باب تحريم تلقي الجلب).

(٢) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٢٨٦) برقم: (٣٤٥١)، (كتاب الإجارة - باب في التسعير)، والترمذي في جامعه(٢/ ٥٨٢) برقم: (١٣١٤)، (أبواب البيوع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في التسعير)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٣١٩) برقم: (٢٢٠٠)، (أبواب التجارات - باب من كره أن يسعر).

وحرَّمت السُّنَّة: الاحتكار، حيث يحبس التجار السلعة التي يحتاجها الناس لترتفع أسعارها بصورة مصطنعة، وقد جاء في السُنَّة: (لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ)[1].

وحرَّمت السُّنَّة: النَّجَش، وهو كذب أو مبالغة تؤدي إلىٰ ارتفاع سعر السلعة بشكل غير حقيقي.

الأصل الخامس: حِفْظ الأُخوَّة ومَنْع التباغض: قصدت السُّنَّة إلىٰ حفظ الأخوة ومنع التباغض بين المسلمين، ومن ذلك ما جاء في الحديث: (وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا)[2]، وهذا يكون عند تدخل طرف ثالث بعد عقد البيع، بأن يحاول إقناع المشتري بفسخ البيع والشراء منه بدلًا من البائع الأوَّل، وكل هذا يُسَبِّبُ البغضاء ويُخِلُّ بمقصد التآخي.

وقد نبَّهت السُّنَّة في عدَّة أحاديث علىٰ حضور أُخوَّة الإسلام في التعامل التجاري، قال النبي ﷺ في الجوائح التي تصيب الثمار المبيعة قبل استلامها من المشتري: (لَوْ بِعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرًا فَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ حَقٍّ)[3]، فعندما يشتري أحدٌ ثمارًا، ثُمَّ تصيبها جائحة وهي عند البائع، فإنَّه لا يذهب ماله المدفوع هدرًا، بل يوضع عنه ما أصاب الثمار ولا يتحمَّل خسارته.

وجاء في الحديث: (الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمسْلِمِينَ)[4]، وجاء في حديث آخر:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٥٦) برقم: (١٦٠٥)، (كتاب البيوع - باب تحريم الاحتكار في الأقوات).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٢٥٦٣)، (كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٢٩) برقم: (١٥٥٤)، (كتاب البيوع - باب وضع الجوائح).

(٤) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٣٣٢) برقم: (٣٥٩٤)، (كتاب القضاء - باب في الصلح)، والترمذي في جامعه(٣/ ٢٧) برقم: (١٣٥٢)، (أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ - باب ما ذكر عن رسول الله ﷺ في الصلح بين الناس)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٤٤٠) برقم: (٢٣٥٣)، (أبواب الأحكام - باب الصلح).

(مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا عَثْرَتَهُ أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ)[1]، والإقالة هي فسخ لعقد البيع بتراضي البائع والمشتري جبرًا لخاطر النادم منهما، ويلاحظ في هذه الأحاديث ذكر صفة الإسلام لاستدعاء الأُخوَّة بين المتعاملين.

وحثَّت السُّنَّة على الصدقة الجارية، كما جاء في الحديث: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ)[2]، وذكر منها: (صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ)، وجاء في الهبة: (وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ)[3]، وهي تعاملات تقوِّي التكافل والصلة بين المسلمين.

الأصل السادس: تحقيق الاتساق بين أحكام الشريعة: يقصد بالاتساق هنا أن يكون بعض الأحكام مرتبطًا ببعض في نظام واحد؛ فقد جاءت السُّنَّة النبويَّة بالنهي عن التعامل في أمور حرَّمت تناولَها أو اتخاذَها، قال ﷺ: (إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ)[4]، وعنه ﷺ: (نَهَىٰ عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ)[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٢٩٠) برقم: (٣٤٦٠)، (كتاب الإجارة - باب في فضل الإقالة)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٣١٨) برقم: (٢١٩٩)، (أبواب التجارات - باب الإقالة).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٣) برقم: (١٣٧٦)، (أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ - باب في الوقف)، والنسائي في شعب سننه (٦/ ٢١٩) برقم: (٣٦٧٧)، (كتاب الوصايا - باب فضل الصدقة عن الميت).

(٣) أخرجه مالك في موطئه (١/ ١٣٣٤) برقم: (١٥٩٤)، (حسن الخلق - ما جاء في المهاجرة)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (٦/ ١٦٩) برقم: (١٢٠٦٥)، (كتاب الهبات - باب التحريض على الهبة والهدية صلة بين الناس).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٨٤) برقم: (٢٢٣٦)، (كتاب البيوع - باب بيع الميتة والأصنام)، ومسلم في صحيحه (٥/ ٤١) برقم: (١٥٨١)، (كتاب البيوع - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٨٤) برقم: (٢٢٣٧)، (كتاب البيوع - باب ثمن الكلب)، ومسلم في صحيحه (٥/ ٣٥) برقم: (١٥٦٧)، (كتاب البيوع - باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي).

ومن ذلك الاتِّساق: أنَّ جاءت السُّنَّة بسَدِّ باب التحايل بالحلال من أجل الوصول للحرام، وذمَّت ذلك ذمًّا شديدًا؛ فقد سألَ بعضُ الصحابة النبيَّ ﷺ في الحديث السابق[1]؛ فقالوا: (يَا رَسُولَ الله! أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَىٰ بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: لَا، هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَـمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ)[2].

وفي مقابل سدِّ باب الحرام؛ جاءت السُّنَّة النبوية بالدلالة علىٰ المخارج الصحيحة التي تُخرِج الإنسان خروجًا حقيقيًّا من المعاملة المحرَّمة، كما ورد في حديث عامل الرسول ﷺ الذي جاء من خيبر، فوجد معه تمرًا من نوع جيد، فقال له رسول الله ﷺ: (أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا، قَالَ: لَا والله يَا رَسُولَ الله، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ، وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَا تَفْعَلْ)[3]، يعني: أنَّهم إذا باعوا التمر بالتمر مقايضة يضطرون إلىٰ دفع كمية أكبر مما هو أقل جودة حتىٰ يصلوا إلىٰ كمية أقل من النوع الجيد، وهذا يُوقع الإنسان في ربا البيوع؛ لأنَّ التمر من الأجناس الربويَّة التي يشترط فيها: التماثل عند بيع الجنس بجنسه.

ومحل الشاهد من الحديث أنَّ النبي ﷺ نهىٰ عن المحرَّم، ثُمَّ دلَّ علىٰ المخرج بعدها؛ فقال: (بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا)، يعني: اجعل النقد يتوسَّط بينهما، فتبيع به وتشتري وانتهىٰ الأمر، وتخرج تمامًا عن قضية بيع التمر بالتمر.

---

(١) وهو: (إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ).

(٢) سبق تخريجه، انظر: (ص١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٧٧) برقم: (٢٢٠١)، (كتاب البيوع - باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه)، ومسلم في صحيحه (٥/ ٤٧) برقم: (١٥٩٣)، (كتاب البيوع - باب بيع الطعام مثلًا بمثل).

الأصل السابع: تيسير التعاملات مع العناية بالحقوق: اهتمَّت السُّنَّة أيضًا بتيسير التعاملات مع العناية بالحقوق ومنع الأضرار، ومن أمثلة ذلك:

- إقرارُ حق التملُّكِ المباح وتوسيعُ وسائله: لقد أباح الشرع المعاملات التي تؤدي إلىٰ التملُّك؛ مثل: البيعِ والهبةِ وغيرِها، وجاءت ببيان سعة وسائل التملُّك، كما في إحياء الموات؛ وهو أن توجد أرض ليس لها مالك، وليست من المرافق العامة، فيجوز لمن أحياها أن يتملَّكها، قال ﷺ: (مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ)[1].

- إقرارُ مبدأ التأجيل في البيوع وضبطُه؛ لئلا تضيع الحقوق ولا يقع الربا أو الغَرَر: أقرَّت السُّنَّة التأجيل في البيوع وضبطته، فمنعت التأجيل في بيع الربوي بالربوي من جنس واحد، كبيع المطعومات بالمطعومات، أو الأثمان بالأثمان، وبقي ما عدا ذلك علىٰ الإباحة في تأجيل الثمن أو المبيع، فيجوز تأجيل الثمن وتعجيل السلعة كما في بيع الأَجَل، ويجوز أن يكون الثمن مُعَجَّلًا والسلعة مُؤجَّلة كما في بيع السَّلَم، قال ﷺ: (مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْلُومٍ)[2]، وفي هذا الضبط بالعلم منع للغرر.

وهذا تيسير علىٰ الإنسان في إجراء البيوع؛ لأنَّه قد لا يكون البائع قادرًا علىٰ تسليم المبيع فورًا، أو قد يكون المبيع ثمارًا لم تنتج بعد، فيستطيع الحصول علىٰ المال المعَجَّل، ويستخدمه في نفقات الإنتاج.

---

(١) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ١٤٢) برقم: (٣٠٧٣)، (كتاب الخراج والفيء والإمارة - باب في إحياء الموات)، والترمذي في جامعه(٣/ ٥٥) برقم: (١٣٧٨)، (أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ - باب ما ذكر في إحياء أرض الموات).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٥٥) برقم: (١٦٠٤)، (كتاب البيوع - باب السلم).

وأيضًا؛ يستطيع مَن يريد أن يصل إلىٰ سلعة أن يصل إليها ثُمَّ يدفع الثمن بشكل آجل، وهذا فيه مخرج وبُعد عن قضية الربا؛ لأنَّ فيه استعمالًا للبيع وتقليبًا للمال من شيء إلىٰ شيء، وفيه نشاط اقتصادي يسوِّغ الربح، وليس مجرد شيء يُعطَىٰ ويُردُّ بدله كما يحصل في القَرْض الذي منعت الشريعة التربُّح فيه.

- **إقرار مجموعة من المعاملات التي تسهِّل التعامل بالأموال**: لم تكتفِ الشريعة بالمعاملات الأساسية؛ مثل: البيع والإجارة، فأقَرَّتْ معاملاتٍ تُسَهِّلُ علىٰ الناس؛ مثل: الجعالة التي تشبه الإجارة، لكنَّها تناسب الأعمال التي قد تحصل نتيجتها أو لا تحصل، كالعثور علىٰ شيء مفقود، أو العمل الذي قد يزيد أو ينقص فيُضبط بنتيجته ويستحق العِوَض عند حصولها، وقد جاء في الجُعْل علىٰ الرقية حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما نزل هو وأصحابه بقوم لُدِغَ سيِّدهم، فطلبوا من يَرْقِيه، فقال له بعض من كان مع أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والله إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ والله لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَىٰ قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ)، ولما سألوا النبي ﷺ عن ذلك قال: (قَدْ أَصَبْتُمُ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا)[1]، كما جاءت السُّنَّة بتقرير مشروعية الإعارة وغيرها من التعاملات المالية.

خاتمة للمحور الأوَّل: حول دور عمل الفقهاء وعلاقته بجماليات التشريع.

قد يتساءَل القارئ فيقول: ماذا عن اجتهادات الفقهاء؟ هل تُعَدُّ مِن التشريع، وينسب ما فيها إليه، ويلمس منها جمال الشريعة؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٩٢-٩٣) برقم: (٢٢٧٦)، (كتاب الإجارة - باب ما يُعْطَى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب).

وهذا سؤال وجيه؛ لأنَّ إنتاج الفقهاء مُذهل وعجيب؛ فمن أين أتىٰ كل هذا وكيف؟ ومن جهة أخرىٰ هو عمل بشري، فيه ما يتطرق إليه الخطأ؛ فكيف ننسبه إلىٰ الشريعة؟

والجواب: أنَّ عمل الفقهاء البشري استند إلىٰ الشريعة واستنبط منها، لكن لأجل شِقِّهِ البشري تنوَّع ما نتج عنه إلىٰ ثلاث جوانب:

- **الأول: أمور كان استنباطها صحيحًا قطعًا، فتُنْسَبُ إلىٰ الشرع.**

- **الثاني: أمور من الأخطاء أو ما يَقْرُب منها مما لا يصح نسبَتُه إلىٰ الشرع**، مثل: الشذوذات، وما يخالف النصوص الثابتة الصريحة من الأقوال، وهذه لا تخفىٰ علىٰ العلماء، ويتناولونها بالنقد.

- **الثالث: أمور تحتمل الاجتهاد**، وتُعَدُّ من مساحة الظَّنِّ في نسبتها للشرع، فهي في قُرْبِها من الشرع من كمالاته، لكن لا تُنْسَبُ إليه بالقطع، ويحترز فيها بالعبارات المناسبة عند الإشارة لنسبتها للشرع.

ويبقىٰ المهم في سياق حديثنا، أنَّ ما في نتاج الفقهاء من مضامين الجمال والكمال له نسبة للتشريع في الجملة، فهم أخذوه من قواعده واستفادوا فيه من خصائصه، ولولا ذلك لما جاء بهذا الاتساع والعمق والشمول الموضوعي والزماني والمكاني، ومَن ينظر في عمل الفقهاء نظرًا تخصُّصِيًّا تفصيليًّا مع علمه بطرائق الاستدلال والاستنباط، لا يشك أنَّ الفقهاء لم يُضيفوا خصائص للتشريع، ولا ميزات جديدة لمحاسنه، وإنَّما استفادوا من المحاسن النصِّيَّة وحاولوا أن ينسُجُوا علىٰ منوال الشرع فيها، وأنَّ الشريعة أظلَّتْ ذلك العمل بظلالها، مع أنَّ مادة كتابنا هذا تركز في الجملة علىٰ تقريرات النصوص المباشرة.

المحور الثاني: خصائص تشريع المعاملات المالية.

تنطبق علىٰ تشريع المعاملات المالية خصائص التشريع نفسها التي سبق ذكرها، وسأقتصر هنا علىٰ إبراز بعض هذه الخصائص:

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأوَّل: خاصِّيَّة اليُسْر، وتبرز في أمور أهمُّها:

- **أصلُ الإباحة**: جعلت الشريعةُ الأصلَ في المعاملات الإباحة؛ أي: أنَّه يُحكَم بإباحة التعاملاتِ ما لم يُوجد دليلٌ أو سببٌ من أسباب تحريمها، فالناظرُ في النصوص يجد أنَّ التحريمَ أتىٰ في بعضها بصيغة الحصر متناوِلًا بعض المحرَّمات، ودار علىٰ أسبابٍ معيَّنة؛ أبرزها: الربا والغَرَر والضرر، وذلك دليل علىٰ أنَّ غير ذلك مباح في الأصل، وقد دلَّ القرآن علىٰ هذا، فالتحريم محصور راجعٌ لأسباب مُعيَّنة، وما سواه مباح، ولا شك أنَّ هذا أيسرُ في إدراك الحكم من جهة، وفي التطبيق من جهة أخرىٰ، فالمعاملاتُ التي تُلبِّي حاجات الناس كثيرةٌ ومباحة.

- **الاعتبار بالأغلب واغتفار اليسير والتبعي**: ومن معالم التيسير وجودُ الاستثناءاتِ في أحكام الشرع، فهو يضع قواعدَ عامَّة ثم يستثني منها بعض الأشياء؛ لتلبية الحاجة ورفع الحرج، خاصة مع غلبة المصلحة وقلَّة المفسدة، كما هو الحال في بيع التمر بالرُّطب بالخَرْص، والأصل هو تحريم بيع التمر بالتمر إلا مِثْلًا بمثلٍ، ولا بُدَّ من تحقيق التماثل بالوزن، ولكن وقع الاستثناء في هذا لحاجة مَن لا يجدون أثمانًا يشترون بها الرُّطب، وكان التمر كثيرًا عندهم فيحتاجون للشراء به مع عدم تحقق التماثل؛ لأنَّ الرُّطب ينقص إذا جَفَّ، فخفَّفتِ الشريعةُ عنهم بالاكتفاء بالخَرْص، أي: بالتوقُّع، وهناك أُناس عندهم خبرة في هذا، فيُكْتَفَىٰ بخَرْصِهِم، وهذا نوع من الاستثناء والتخفيف باغتفار الفرق اليسير.

وكذلك رجوع الوالد في هِبَة الولد، فهو استثناء من الذمِّ العام: (الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ، يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ)[1]، ورُبَّما يُلحظ في هذا معنىٰ التبعية، يعني من قواعد الشريعة العامة أن التابع يُلحَق بمتبوعه، فلعلَّه لأجل تبعيَّة الولدِ للوالد أُعْطِيت هبةُ الأب حُكْمًا مختلفًا، ولا شك أنَّ في هذا تيسيرًا.

وكذلك إتاحة التراجع عن العقد في الفترة التي تليه في خيار المجلس؛ إذ يُتاح التراجع عن البيع قبل التفرُّق، وفي هذا تلبيةٌ لحاجة موجودة في النفوس تقتضيها الطبيعة البشرية التي تتسرع أحيانًا ثم تتراجع مباشرة بعد وقوع الأمر.

وكذلك الإقالة، حيث يتسامح الطرفان ويتفقان علىٰ فسخ العقد، مع أنَّه مُلْزِم، وقد حثَّت الشريعة علىٰ الإقالة كما مرَّ سابقًا[2].

ومن ذلك: أنَّ العبد يستطيع التنازل في حقِّه الخاص، حيث يستطيع ردَّ السلعة بالعيب إن شاء، أو يتنازل ويمضي البيع مع وجود العيب، وقد حثَّ النبي ﷺ علىٰ السماحة في البيع، كما جاء في الصحيح من قوله ﷺ: (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَىٰ، وَإِذَا اقْتَضَىٰ)[3]، وهذا مبدأ يسير عليه المؤمن في عموم هذا الباب.

الثاني: خاصِّيَّة المنهجية: ومما يُبيِّن بروز هذه الخاصِّيَّة في تشريع المعاملات المالية عدَّة معالم:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٥٨) برقم: (٢٥٨٩)، (كتاب الهبة وفضلها - باب هبة الرجل لامرأته)، ومسلم في صحيحه (٥/ ٦٤) برقم: (١٦٢٢)، (كتاب الهبات - باب تحريم الرجوع فِي الصدقة والهبة).

(٢) انظر: الأصل الخامس: حفظ الأخوة ومنع التباغض (ص١٦١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٧) برقم: (٢٠٧٦)، (كتاب البيوع - باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع).

- **أُسُس صحة العقود**: إذا نظرنا في النصوص نجدها أفادتْ أُسُسًا لصحة العقود، مثل: اشتراطِ التراضي، والعلمِ بالمعقود عليه، وإباحته، وهذه الشروط -مع الأركان- هي أساسُ العقد الذي يقوم عليه، فإذا رُوعِيَتْ واجتُنِبَتْ أسبابُ التحريم؛ وُجِدَ العقد بطريقة سليمة واضحة؛ لا سيَّما أنَّ أسباب التحريم مُحدَّدة، وهي راجعة في الغالب إلىٰ الربا والغَرَر والضرر.

- **إمكانُ معالجة الخلل في العقد بعد وقوعه**: وإذا حصل خلل في العقد فلا يلزم أن يؤديَ ذلك لبطلانه في كلِّ الصور؛ فبعضُ أنواع الخلل لا يكون في أساس العقد، وإنَّما بسبب شرط فاسد أُضِيفَ، فيمكن أن يُصَحِّحَ العقد ويستمر بإلغاء الشرط.

وإذا وُجد بالسلعة عيبٌ، فليس البُطلان هو الحكم الوحيد في الشرع، بل هناك بدائل أخرىٰ، فيمكن أن تُردَّ السلعة أو يتنازلَ المشتري مجانًا، ويقبلَ بالسلعة، أو يُعَوَّضَ عن النقص.

- **ارتباطُ التصرفات بعقودٍ متنوعةِ الأحكامِ والمقاصد**: ومن الأوجهِ المنهجيةِ أنَّ التصرفاتِ الماليةَ ترتبط بعقود متنوعة، وكلُّ عقدٍ تنطبق عليه قواعد عامَّة، ويتميَّز ببعض الأحكام الخاصة؛ فتجد أحاديثَ جاءت في الرَّهْن، وأخرىٰ في الضَّمَان، والحَوَالة، وغيرها، واستلهم العلماء منها ومن القواعد العامة أحكامًا مُعيَّنة للحَوَالة وللإجارة... وهكذا، وكلُّ عقدٍ من هذه العقود له مقاصد، فمقصِد البيع مثلًا: نقل الملكية والتصرف والانتفاع الدائم بمقابل، ومقصد الإجارة: الانتفاع المؤقت بمقابل، ومقصد الهبة: نقل الملكية مجَّانًا، ومقصد الإعارة: الانتفاع المؤقَّت مجَّانًا، ومقصد الوديعة: الحفظ... وهكذا.

فتجد أنَّ لكل عقد مقصدًا وآثارًا، فقد يجوز لك التصرف في المال بناء علىٰ العقد وقد لا يجوز، وقد يجوز ذلك التصرُّف بشكل مؤقَّت أو دائم، وقد يكون ذلك بمقابل أو دونه، فهناك مجموعة قواعد محددة لكل عقد، ولا تستطيع أن تشترط شرطًا يُبطل فائدة العقد، أو تجمع بين عقدين بطريقة تحدث التناقض بين مقاصد العقود، وهذا الاتساق والتنظيم من جمال الشريعة.

وقد أرشدتِ الشريعةُ إلىٰ وجوبِ هذا التنظيمِ وضرورةِ مراعاتِه بطريقة شاملةٍ عميقة؛ فقد نصَّتْ علىٰ تحريم بعض الحِيَل، ومن أشهر أمثلتها: بيع العِينَة، إذ يُجري المتحايلان المبايعة بطريقة تجعل البيع بلا معنىٰ، كأن يأتي زيد ويقول لعمرو: بعني هذه السلعة بعشرة آلاف أدفعها لك بعد سنة، ثم يشتري عمرو السلعة نفسها من زيد بعد أن تملَّكَها صُورِيًّا بتسعة آلاف مُعَجَّلَة، فتعود له السلعة وتبقىٰ حقيقة ما جرىٰ بينهما، وهو إقراض تسعة آلاف بعشرة بعد سنة، فنجد أنَّهما نقَضَا مقصود عقد البيع وهو نقل الملكية، وتوصَّلَا بالمعاملة لمقصود آخر مغاير له وهو الإقراض مع الزيادة الربوية، ومثل هذا الخلط يُمنع في الشرع، ولذا جاء في الحديث ذَمُّ بيعتين في بيعة[1]، وهكذا يكون حكم كلِّ معاملة تناقض مقصود الشرع وتوصل للمحرَّم.

الثالث: خاصِّيَّة الشمول: وتبرز في عدَّة أمور، من أهمها:

- **وجود قواعد عامَّة ومعانٍ مؤثرة في أنواع التصرفات**: مثل: تحريم الربا والغَرَر، وتحقيق الرِّضَا والعدل، وجعل الإباحة هي الأصل.

---

(١) كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ؛ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا، أَوِ الرِّبَا)، أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٢٩٠) برقم: (٣٤٦١)، (كتاب الإجارة - باب فيمن باع بيعتين في بيعة)، والترمذي في جامعه (٢/ ٥١٣) برقم: (١٢٣١)، (أبواب البيوع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في النهي عن بيعتين في بيعة).

- **العناية الشاملة بالقيم**: فنجد أنَّ الأحكام تدور حول قيمٍ مثل: العدل والإحسان والأخوَّة والأمانة والصدق وطلب الحلال، وكلها ركَّزت عليه النصوص وعلَّلت الأحكام به، كقوله ﷺ: (بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ حَقٍّ)[1]، وقوله: (وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ)[2]، فهناك رسالة واضحة في نصوص التشريع مفادها غرس هذه القيم وإعلاؤها.

- **التناول التفصيلي لمعاملات بعينها**: فقد تناولت النصوص أنواعًا مِن المعاملات، وخصَّتْ كل معاملة منها بأحكام، واعتَنت بالبيع بشكل خاص؛ لأهميته، ولأنَّ كثيرًا من العقود تُؤخذ أحكامها منه، فبعضها يتفرَّع منه، وبعضها يُشْبِهه، وما لا يُشْبِهه في شيء فالشريعة تراعي الفروق في ذلك، وتقدِّم النصوصَ التفصيليةَ التي تراعيها.

- **التحريم التفصيلي لِمَا فيه أكل المال بالباطل والظلم والإضرار**: وهذا مع جعل الإباحة هي الأصل ومنع ما ترجَّح مفسدته = أَوْجَدَ الرؤية الشاملة التي تُلَبِّي حاجة النَّاس للتعامل.

- **إقرار المعاملات المتنوعة والتصرفات المالية التي تُيَسِّر التملُّك مع تكثير المصالح ودرء المفاسد**: فجاءت الشريعة بإقرار مبادئ التملُّك والتصرُّف الحُرِّ، لكن مع تنظيم المعاملات بحيث تُغلَّبُ المصلحة، وتنعدم أو تقلُّ المفسدة.

الرابع والخامس: خاصِّيَّتَا الواقعية والمرونة: وتظهران في التيسير الذي سبق الحديث عنه، وتظهران كذلك من خلال أمور، منها:

---

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص١٦٢).

(٢) سبق تخريجه، انظر: (ص١٦١).

- **الانضباط**: فلم تكتفِ الشريعةُ بالكلام عن العدل أو الرضا باعتبارها قيمًا عامَّة فحسب؛ وإنَّما جاءت بأحكام تفصيلية تُطبِّقها بوضوح، غير تاركة ذلك للنسبية والتخبُّط؛ فخيار المجلس -مثلًا- فيه تحقيق للتراضي، وكذلك الحَجْر علىٰ غير المؤهَّل؛ لأنَّ غير المؤهَّل لا يتحَقَّقُ منه التراضي لنقص الأهلية.

فإذًا هناك تفصيلات تُحقِّق المعاني العامة، وهذا من الانضباط الذي يُسَهِّلُ إدراك الحكم وتنزيلَه علىٰ الواقع، ويُسَهِّلُ أيضًا الإفتاء والاجتهاد.

- **الاعتبار بالعادات**: الاعتبار بالعادات يُكسِب التشريع واقعية ومرونة؛ لأنَّك تجد حكمَ ردِّ السلعة بالعيوب مثلًا، لكن ما العيوب المؤثِّرة؟ إنَّها تختلف باختلاف السِّلَع وغيرها من المؤثِّرات، لكن العادة تضبط ذلك.

واعتبار الشرع للعادة قاعدة عامة، يُوجد لدينا طريقة واضحة لتنزيل الحكم بصورة تحقِّقُ المقصود الشرعي.

ومن أمثلة الاعتبار بالعادة: قَبْض السِّلَع المبيعة، فمعنىٰ القَبْض يختلف باختلاف المبيعات، فمنها ما يُقبَض باليد، أو بالنقل، أو بالتخلية كما في بيع العقار، والعُرْف هو الضابط لذلك، وبهذا يمكن معرفة تحقُّقِ القَبْض في مسائل معاصرة؛ مثل: تحويل المال إلىٰ الحساب البنكي.

- **أصل الإباحة، ووجود المعالجات التصحيحية**: تظهر واقعية ومرونة الشريعة في أنَّها جعلت الأصل في الأشياء الإباحة، وجعلت للخللِ الذي قد يقع تصحيحاتٍ، فهي لم تكتفِ بالمنع فقط، وإنَّما أوجدت المعالجات التصحيحية، وهذا كله من باب مراعاة الواقع؛ لأنَّ الناس قد يجهلون بعض الأحكام، أو تضعف نفوسهم عن الالتزام بها، فيكون هناك وسائل للتصحيح، يجد بها الناس طريقًا

لاستقرار معاملاتهم بما يحقِّقُ مقصدَ الشرع دون الاضطرار لإبطال التعامل عند كلِّ خلل يحدث.

السادس: خاصِّيَّة التوازن: توازنت الشريعة في حديثها عن المال، فللمال أهميته ودوره في إقامة الحياة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥]، وفي هذا حثٌّ علىٰ حفظ المال؛ لأنَّه وسيلة لإقامة معيشة النَّاس، لكنَّ دوره هو دورُ الوسيلة، وليس دورَ الغاية، ويجب ألَّا يكون فتنة يصدُّ الناس عن رسالتهم الأساسية في الوجود، وأعظم شيء يمكن أن يستعمل له هو: إقامة الحق ونُصرة الدِّين، وهذا ما دَلَّ عليه حديث القرآن في التحذير من فتنة المال، وبيان المشروع فيه من زكاة، ونحو ذلك.

كما حثَّت الشريعة علىٰ التوازن في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، ووازنت بين المصالح الخاصة والعامة، فقال ﷺ: (وَلَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ)[1]، يعني: لا يبع الشخص الذي يعرف الأسعار للشخص الذي يأتي السوق من بعيد ولا يعرف الأسعار، فنهت عن أن يكون الذي في السوق سمسارًا للبادي؛ لأنَّه سيرفع الأسعار حتىٰ يزيدَ ربحَه، ويضرَّ بالباعة من أهل السوق، بينما لو جاء هذا البادي بطبيعته وعفويته سيربح ربحًا مُعيَّنًا يرضيه.

وفي المقابل ينهىٰ حديثٌ آخر عن تلقي الرُّكبان، وذلك بالشراء منهم قبل أن يدخلوا السوق ويعرفوا الأسعار، وهذا النهي يُحقِّق المصلحة ويدفع المفسدة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٧١) برقم: (٢١٥٠)، (كتاب البيوع - باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٣٨) برقم: (١٤١٣)، (كتاب النكاح - باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك).

عن البائع الذي جاء ليبيع في السوق، وفي هذه المسألة جاءت معالجةٌ تصحيحيةٌ، قال ﷺ: (فَإِذَا أَتَىٰ سَيِّدُهُ السُّوقَ فَهُوَ بِالْخِيَارِ)[1].

فهذه الأحكام كلها تُظهر توازن الشريعة بين أنواع المصالح المختلفة، بين العام والخاص، وفي المصلحة الخاص نفسها، فوازنت بين السماح بالسمسرة وبين منعها، فأباحتها في الأصل ومنعت هذه الصورة منها؛ مراعاة لمصالح أخرىٰ أهم.

وكذلك نجد التوازن بين أطراف التعاملات؛ فمثلًا: في مسألة الإعسار يراعَىٰ المُعْسِر في المدَايَنات، وفي هذا يقول تعالىٰ: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠]، ويبقىٰ للغني حقٌّ في المطالبة إذا عاد إلىٰ الفقير غناه وأيسر، فهناك توازن بين الأطراف، مع أنَّ هذا غني وهذا فقير، فلم تسقط الشريعة الدَّين مُطلقًا تقديمًا لجانب الفقير لحاجته وغنىٰ الغني، فهي لا تُهمل مصلحة أحد، بل توازن بين مصالح الجميع، فيجدون السماحة والرحمة والعدل في هذا التشريع العظيم.

السابع: خاصِّيَّة التكامل: وهي من أجلِّ الخصائص وأجملها، وسنقف معها وِقْفةً إجمالية وأخرىٰ تفصيلية.

الوِقفة الأولىٰ: الوِقفة الإجمالية

- **تكامل المال مع مقاصد الشرع**: فالشريعة جعلت المال وسيلةً لحفظ الدِّين في إيجابها الزكاة في سبيل الله، وبيَّنت قيمة المال ومنزلته بتوازن، وشَرَعَتْ وسائل حفظه وتسخيره لمقاصد الشرع ومصالح الخلق المندرجة تحتها، كما منعت المعاملات المخلَّة بأحكامه؛ مثل: بيع المحرَّمات، أو البيع المؤدي لضياع صلاة الجمعة وهكذا.

---

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص١٦٠).

كما نلاحظ التكامل بين المال وحفظ النفس، فالمال يُبذل لأجل حفظ النفس؛ لأنَّها أهم، بشراء الطعام والشراب ونحوه، ويتكامل المال مع حفظ النسل في دفع المهر والنفقة علىٰ الزوجة والأولاد، ويَحرُم استعماله فيما يضاد مقصد حفظ النسل من وسائل الزنا، وما يضاد مقصد حفظ العقل من بيع الأشياء التي تُفسده كالخمور، ولا تصِحُّ العقود التي تنعقد علىٰ هذه المفسدات.

فالتكامل حاصل مع الضرورات الخمس، ومنها حفظ المال نفسه بالتعامل المالي المشروع؛ فقد منعت الشريعة أكل المال بالباطل وفصَّلَت القواعد والأحكام التي تمنع الظلم في الأموال.

- **تكامل الأحكام مع المعاني الكلية**: نستطيع القول إنَّه لا يمكن أن يوجد شيء تفصيلي جزئي إلَّا وهو مرتبط بشيءٍ كُلِّي، فإذا تأمَّلْتَه وربطته بالكلي أشرق في نفسك المقصد، ورأيت جانبًا من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك إذا اتضحت المعاني الكليَّة المؤثرة كالعدل والرضا، وشُهِدَتِ المقاصد في جزئيات الأحكام.

ويقال مثل هذا في الأصول التي يُبْنَىٰ عليها باستمرار؛ كأصل الإباحة في المعاملات، وأصل الصِّحَّة واللزوم في الشروط، فهي بمثابة الكليَّات المنهجية التي تُعِين علىٰ إدراك الحُكم في التفصيلات، ومثلها في ذلك أسباب التحريم الرئيسة في هذا الباب، وهي: الربا والغَرَر والضرر.

- **التكامل في اعتبار مقاصد المكلَّفين**: فعند ربط الحكم بمقصِد المكلَّف يمكن الحكم علىٰ المعاملة بواقعية واتِّسَاق مع مقاصدِ الشرع وقواعدِه، ولهذا جاءت السُّنَّة بتحريم بعض المعاملات التي يكثر اتخاذها وسيلة لبلوغ مقصد محرَّم؛ كتحريم بيع العِينَة لأجل الربا.

الوقفة الثانية: الوقفة التفصيلية

ننتقل في هذه الوقفة من العام إلىٰ الخاص، لنرىٰ كيف انعكست معاني الشريعة العامة علىٰ التفصيلات بتناسق بديع.

ستُركِّز وِقفتنا هذه علىٰ ربط الشرع للربح بالضمان، ولنبدأ في ذلك من المعنىٰ العام المراعَىٰ في تشريع المعاملات وهو العدل والرضا، الذي لأجله حرَّمت الشريعة المعاملات المتضمِّنة للظلم، وأكل المال بالباطل، واستطردت بدقة في الفروع المتناثرة بشكل متسق مع هذا المعنىٰ، بل وضعت أُسُسًا تتناول الفروع المعاصرة.

ولا بُدَّ أن نبدأ بإعطاء فكرة للقارئ عن معنىٰ الضمان والمقصود بربط الربح به.

فالمقصود بالضمان في سياقنا هو: تحمُّلُ مسؤولية الشيء المملوك من ناحية الإنفاق عليه إذا كان يحتاج لنفقة أو صيانة، وتحمُّل الخسارة أو النقص أو التَّلَف الذي يطرأ عليه، وهذا الضمان هو في الأصل مرتبط بالـمُلك، فمَن يملك عقارًا -مثلًا- فهو المسؤول عن صيانته وهو الذي يتحمَّل ما يطرأ عليه من نقص في قيمته، وفي المقابل هو الذي يختصُّ باستحقاق دخله وما يحصل فيه من زيادة في القيمة.

وهذه الجملة الأخيرة في فِقْرتنا هي المقصود من الربط بين الضمان والربح؛ أي أنَّ مَن يكون عليه تحمُّل الضمان بسبب الملك، هو الذي يستحقُّ الربح، وهذا من العدل، ومخالفتُه ظلم، فليس من العدل أن يشارك في الربح مَن لا يشارك في الضمان، ولنبدأ استعراض بعض أوجه التكامل علىٰ مستوىٰ المقاصد، ثُمَّ علىٰ مستوىٰ الأحكام التفصيلية، ليتَّضح لك بديعُ تجلِّيَات هذه الخاصية.

- **التكامل مع مقاصد تشريع المعاملات العامة (تحقيق العدل والرضا)**: وسبق بيان أنَّهما أكبر غايات أحكام المعاملات، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾ [النساء:٢٩].

ونلاحظ أنَّ هذا التكامل مع هاتين الغايتين أخذ منحًىٰ تفصيليًّا رَبَطَ الضَّمان والربح بشكل وثيق، مع اطِّراده بدقَّة في فروع متناثرة، فنجد ما يتعلَّق به في الشركة، والقَرْض، ومنع البيع قبل القَبْض، وردِّ السلعة بالعيب، والربا، وعقود الأمانات، وهذا هو ما سمَّيْنَاه: خاصِّيَّة التكامل، ولندلف بعد هذا الإجمال إلىٰ بعض التفصيل.

- **التكامل في شمول مراعاة المعنىٰ في صور المعاملات**: إنَّ معنىٰ الظلم الذي أشرنا إليه في عدم ارتباط الربح بالضمان يُلاحَظ في الربا؛ فالمرابي بأخذه زيادات علىٰ الدَّيْن يقصد الربح دون أن يتعرَّض للخسارة، أو يتحمَّل مسؤولية المال الذي يستحقه علىٰ المدِين، فيحصل الربح في جانب المرابي وتنحصر المسؤولية في جانب المدِين؛ لأنَّ المقْرِض أو صاحب الدَّين عمومًا يستحق دينه مضمونًا له، ولا علاقة له بما يحصل للمال من خسارة، فالمسؤول عن ذلك هو المدِين وحدَه.

والشريعة لم تكتفِ بدفع الظلم الواقع في الربا بسبب عدم الربط بين الربح والضمان، بل استقصت في منعه، ويُلاحظ هذا في صور متعددة من المعاملات، وهذا من عناية الشريعة بتحقيق العدل، حتىٰ إنَّ هذا الربط جاء في قاعدة فقهية رُويت في حديث عن النبيِّ ﷺ، وهي قاعدة: (الْخَرَاجُ بِالضَّمَانِ)[1]، وسبب الحديث جاء

---

(١) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٣٠٤) برقم: (٣٥٠٨)، (كتاب الإجارة - باب فيمن اشترى عبدًا فاستعمله ثم وجد به عيبًا)، والترمذي في جامعه(٢/ ٥٦١) برقم: (١٢٨٥)، (أبواب البيوع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء فيمن يشتري العبد ويستغله ثم يجد به عيبًا)، والنسائي في شعب سننه (٧/ ٢٠٢) برقم: (٤٥٣١)، (كتاب البيوع - باب الخراج بالضمان)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٣٥٣) برقم: (٢٢٤٣)، (أبواب التجارات - باب الخراج الضمان).

في ردِّ المبيع بسبب اكتشاف عيب فيه مع كون المشتري الذي يطلب الرد قد انتفع بالمبيع قبل رده، فالحديث بيَّن أنَّ المنفعة التي استوفاها المشتري قبل الردِّ مستحقَّة له؛ لأنَّ مسؤولية المبيع ونفقته وخسارته ومصاريفه ونحو ذلك كانت عليه في تلك الفترة.

وفي حديث آخر نهىٰ النبي ﷺ عن ربح ما لم يضمن[1]، ونهىٰ عن بيع الطعام قبل قبضه[2]؛ لأنَّ المعنىٰ نفسه يوجد في ذلك؛ فالمشتري إذا باع المبيع قبل أن يقبضه ويدخل في ضمانه ربح فيه، مع أنَّه لا زال في ضمان البائع الأوَّل، لأنَّ البائع الأوَّل قبل التسليم تبقىٰ عليه مسؤولية الحفظ والتسليم، فلو باعه المشتري في هذه المرحلة وربح فيه كان ذلك كسرًا لقاعدة الخراج بالضمان التي تُحقِّق العدل.

ومن تطبيقات هذه القاعدة أيضًا: ما أجمع عليه العلماء من أنَّ خسارة الشركاء تكون علىٰ قدْر رؤوس أموالهم. ومنها: أنَّ الضمان في عقود الأمانات يكون علىٰ المالك لا علىٰ المؤتمن، إلا إذا تعدَّىٰ المؤتمن أو فرط، مثل: المستأجر، والحافظ للوديعة، والشريك في نصيب شريكه، فهؤلاء لا يَضْمَنون إلا إذا تعدَّوا أو فرطوا؛ لأنَّ الربح يكون للمالك لا لهم، فليس من العدل أن يُضَمَّنوا ما يعود ربحه لغيرهم.

---

(١) انظر: سنن أبي داود (٣/ ٣٠٣) برقم: (٣٥٠٤)، (كتاب الإجارة - باب في الرجل يبيع ما ليس عنده)، وجامع الترمذي (٢/ ٥١٥) برقم: (١٢٣٤)، (أبواب البيوع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في كراهية بيع ما ليس عندك)، وسنن النسائي (٧/ ٢٧٣) برقم: (٤٦٧٢)، (كتاب البيوع - باب سلف وبيع وهو أن يبيع السلعة على أن يسلفه سلفًا)، وسنن ابن ماجه (٣/ ٣٠٨) برقم: (٢١٨٨)، (أبواب التجارات - باب النهي عن بيع ما ليس عندك وعن ربح ما لم يضمن).

(٢) انظر: صحيح مسلم (٥/ ٧) برقم: (١٥٢٥)، (كتاب البيوع - باب بطلان بيع المبيع قبل القبض).

وكذلك الشأن في النهي عن بيع ما ليس عند الإنسان في حديث: (لَا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ)[1]، فإذا بعت ما لا تملكه وكان سلعةً معيَّنة مملوكةً لشخص آخر، فإنَّك تبيع وتربح في سلعة لم تدخل في ملكيتِك، فضلًا عن ضمانك.

إذًا هي فروع كثيرة كلها ترجع للمعنىٰ العام: (الْخَرَاجُ بِالضَّمَانِ).

- **دقة الشريعة في إجازة بيع السَّلَم**: يبيع الإنسان في بيع السَّلَم سلعة مُؤجَّلة يستلم ثمنها مُعَجَّلًا، ككمية من التمر يستلم ثمنها مُعَجَّلًا، ويُسَلِّمُ كميَّة التمر بعد سنة مثلًا، فالتمر في هذا البيع لا يكون موجودًا وقت العقد علىٰ رؤوس النَّخْل، فهو بيع لمعدوم لم يوجد بَعْدُ، فضلًا عن أن يملكه البائع أو يكون في ضمانه؛ فكيف يتَّفق هذا مع قاعدة الخَرَاج بالضمان؟

اشترطت الشريعة في مسألة السَّلَم ألَّا يرتبط المبيع بعينٍ مُعيَّنة، بل يرتبط بذمَّة البائع، فيكون كالدَّيْن، كأنَّك تقول: (عليَّ ألف ريال)، فلا ترتبط بالألف التي في المحفظة، أو في الحساب البنكي، بل يكون في ذمتك ألف تعطيها من أي ألف، والشيء نفسه ينطبق علىٰ السَّلَم، فلا يجوز أن يرتبط السَّلَم بشجرة مُعيَّنة أو بستان مُعيَّن، بل تذكر المواصفات، ويكون المبيع المعقود عليه شيئًا عامَّ الوجودِ، فإذا لم تُنْتِجْ هذه المزرعة يمكن أن تُنْتِجَ غيرُها، وهذا يمنع الغَرَر، ويكون المبيع بمثابة الدَّيْن، فالسَّلَم يُعدُّ من الديون، ويكون البائع ضامنًا له؛ لأنَّه دين ثبت في ذمته، وعليه

---

(١) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٣٠٢) برقم: (٣٥٠٣)، (كتاب الإجارة - باب في الرجل يبيع ما ليس عنده)، والترمذي في جامعه(٢/ ٥١٤) برقم: (١٢٣٢)، (أبواب البيوع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في كراهية بيع ما ليس عندك)، والنسائي في شعب سننه (٧/ ٢٦٣) برقم: (٤٦٥٤)، (كتاب البيوع - باب السلم في الطعام)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٣٠٨) برقم: (٢١٨٧)، (أبواب التجارات - باب النهي عن بيع ما ليس عندك وعن ربح ما لم يضمن).

فيتَّسِقُ مع قاعدة الربط بين الربح والضمان، فتأمَّل هذه الدقَّة في انطباق القواعد والمعاني الشرعية في كافَّةِ الفروع، مهما اختلفت صورها!

- **الدقّة في أثر ابن عمر في الدراهم والدنانير**: ومن العجائب في هذا الباب ما جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عندما قال: (كُنْتُ أَبِيعُ الْإِبِلَ بِالْبَقِيعِ، فَأَبِيعُ بِالدَّنَانِيرِ وَآخُذُ الدَّرَاهِمَ، وَأَبِيعُ بِالدَّرَاهِمِ وَآخُذُ الدَّنَانِيرَ، آخُذُ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ، وَأُعْطِي هَذِهِ مِنْ هَذِهِ)[1]، أي: أنَّه كان يبيع الإبل بعملة الدنانير الذهبيَّة، أو الدَّراهم الفضيَّة بشكل مُؤجَّل، وعندما يأخذ الثمن يأخذ بدل الدَّراهم المتفق عليها ابتداءً دنانير، أو يتَّفق ابتداءً علىٰ البيع بالدَّنانير ثُمَّ يأخذ الدَّراهم، وبهذا صار في إرجاع الدَّيْن عملية صرف، فرُوي أنَّ النبي ﷺ قال له توضيحًا للحُكم: (لَا بَأْسَ أَنْ تَأْخُذَهَا بِسِعْرِ يَوْمِهَا مَا لَمْ تَفْتَرِقَا وَبَيْنَكُمَا شَيْءٌ)[2]، فذكر شرطين:

الأول: أن يكون بسعر يومه، فيتقيَّد بسعر الصرف نفسه لذلك اليوم.

والثاني: ألَّا يكون بقي بينهما شيء إذا تفرَّقا، فيستلم كل منهما ما له، وتتم المصارفة في اللحظة نفسها.

والشرط الثاني يأتي متَّسِقًا مع أحكام الصرف المتعلِّقة بالربا، فلا بُدَّ في صرف الأثمان من أن يكون يدًا بيد دون تأجيل، لكن ما سِرُّ الشرط الأوَّل؟!

---

(١) أخرجه أبو داود في شعب سننه (٣/ ٢٥٥) رقم: (٣٣٥٤)، (كتاب البيوع - باب في اقتضاء الذهب من الورق)، واللفظ له، والترمذي في جامعه(٢/ ٥٢٣) برقم: (١٢٤٢)، (أبواب البيوع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في الصرف)، والنسائي في شعب سننه (٧/ ٢٥١) برقم: (٤٦٢٥)، (كتاب البيوع - باب بيع الفضة بالذهب وبيع الذهب بالفضة)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٣٦٩) برقم: (٢٢٦٢)، (أبواب التجارات - باب اقتضاء الذهب من الورق والورق من الذهب).

(٢) تكملة الحديث السابق.

ذكر بعض العلماء أنَّ الحكمة فيه تجنُّب ربح ما لم يُضْمَن؛ لأنَّه إذا باع الدنانير بالدراهم وباعها مع الربح -بسبب أنّه لم يلتزم بسعر الصرف- دخل عليه ذلك الربح في بيع نقد لم يكن في ضمانه؛ أي أنَّه إذا قال الدائن: أعطني بدل الدَّراهم دنانير، فالذي عليه الضمان هو المدِين وليس الدَّائن، وهنا لو وقع الربح في المصارفة للدَّائن فإنَّه سيكون قد ربح فيما لم يضمن!

وقد قال بعض المحدِّثين في هذا الأثر أنَّه موقوف علىٰ ابن عمر، ولا يصح رفعه للنبي ﷺ[1]، لكن لا شَكَّ أنَّ أقلَّ ما يُقال في هذه الدقَّة أنَّها من فقه ابن عمر الذي حصل له من فقه هذه الشريعة، ووقع هذا الفقه متكاملًا مع كل هذه المنظومة التي تندرج تحت هذه القاعدة.

- **بُعْدٌ آخرُ لهذه القاعدة**: إذا تأمَّلْنَا أثر هذه القاعدة فسنجد أنَّها تصُبُّ في جانب تأكيد دور السلعة في المعاملات، فلا مجال لبيع النقد بالنقد مع كون السلعةِ وهميةً لا أثر لها في البيع، بل لا بُدَّ من ضمانها قبل إعادة بيعها، وذلك يتضمن القبض، فهناك بُعْدٌ عملي في المبايعات يعرقل تحويلها إلىٰ مضاربات لنقود بنقود يتضخم فيها دور النقد ويضمحل دور السلعة، فالمشتري يدفع رغبة في ربح متوقَّع ممن سيشتري أيضًا للسبب نفسه، والسلعة لا أهمية لها، مما يُؤدي في آخر المطاف إلىٰ وقوع الإجحاف بمن سيدفع، ثُمَّ لا يجد من يُربحه، فالطمع في النهاية سينتهي إلىٰ حدٍّ، ويغلبُه حينها الخوفُ من الخسارة، فيعود الأمرُ لحقيقته، وتكون أموال

---

(١) قال الترمذي: (هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، وروى داود بن أبي هند هذا الحديث عن سعيد بن جبير عن ابن عمر موقوفًا، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، أن لا بأس أن يقتضي الذهب من الوَرِق والوَرِق من الذهب، وهو قول أحمد وإسحاق، وقد كره بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم ذلك)، انظر: جامع الترمذي (٢/ ٥٢٣).

الناس قد أُكِلَتْ بالباطل! فضلًا عن أنَّ السلعة قد يظهر فيها عيب أو شيء آخر يقتضي فسخَ البيع فتنتقض كل المبايعات، وتنتفي القدرة علىٰ التسليم التي تُشترط في المبايعات الشرعية لنفي الغَرَر.

ولننتقل لبيان أثر هذا البناء المحكم في بعض المبايعات التي لم تُعرَف إلا حديثًا.

- **تأكيد دور التعامل الحقيقي «سلسلة بونزي مثالًا»**: ينطبق علىٰ بعض صور التعامل التي لا تنبني علىٰ تبادل حقيقي للسلعة، ما يُعرف بـ «سلسلة بونزي»، وفيها يتم إيهام مَن يدخل معك في مشروع بأنَّه سيكون هناك ربح ممن بعده، ومَن بَعده يُؤخذُ منه الربح ويُعطَىٰ للأول، وهو يدفع طمعًا في دخول ثالث يؤخذ منه الربح ويمرر للأعلىٰ وهكذا، فيستفيد الأول والثاني والثالث، فكلُّ مَن أدخل أحدًا يستفيد، ثُمَّ في لحظة مُعيَّنة إمَّا أن يهرب من سبق بالمال، أو أنَّ الشك سيبدأ والخوف يتعالىٰ من توقف دوران العجلة، وفي ظل عدم وجود نشاط تجاري حقيقي ينبني علىٰ معقودٍ عليه له أثرٌ وقيمةٌ مناسبة؛ سيقع الإحجام عن الدفع، فتسقط السلسلة!

ولو نظرنا إلىٰ قواعد الشرع في اشتراط كون المبيع مالًا وعدم بيعه قبل قبضه وضمانه، ستسقط هذه التعاملات الوهمية من بدايتها تمامًا، كما يمتنع أي بيع صُورِيٍّ يُتَحَايَل به علىٰ الربا كبيع العِيْنة؛ فكثير من التعاملات التي تنبني علىٰ أن النقد يُولِّد النقد دون توسُّط ضمان وتملُّك حقيقي لسلع -وهي نفس فكرة الربا- تنتهي بهذه القاعدة العجيبة.

النتيجة الضرورية:

يظهر ممَّا سبق أنَّ هناك نظامًا متقَنًا، فيه شمول وتوازن وعمق وتناسق.

العجيب أنَّ هذا النظام نتج عن نصوص جاءت في مناسبات متفرِّقة، ولم توضع مجموعةَ أفكارٍ مؤلَّفةً في كتاب، يتم التنسيق بينها، ومراجعتها، وترتيبها، حتى تخرج بصورة متناسقة.

يظهر التكامل والترابط بالتأمُّل في المعاني المشتركة والعلاقات.

يظهر الاطراد والتناسق بالمقارنة بين وجوه الشبه، والفروق في المسائل المتشابهة.

يلزم مما سبق أن هذا النظام له مصدر علمه عظيم، وهو أعلى من التجربة والتطوير التدريجي الذي تمر به المحاولات البشرية للتشريع.

إنَّه حقًا تشريع عجيب، ترىٰ فيه كل الأمور متَّسقة ومترابطة فيما بينها، وهو ما يُوصلنا إلىٰ نتيجة ضرورية؛ هي أنَّ هناك نظامًا مُتقنًا، فيه شمول وتوازن وعمق مع الترابط والتكامل.

والعجيب أنَّ هذا النظام نتج عن نصوص جاءت في مناسبات متفرِّقة؛ مثل: النهي عن بيع الغَرَر، والنهي عن بيع الشيء قبل قبضه، وأحكام الربا، وغيرها من التفاصيل التي لم تأتِ في يومٍ واحد، وإنَّما جاءت في مناسبات متفرِّقة متناثرة، ولم تُوضع مجموعةَ أفكارٍ نُسِّقَ بينها ووضعت في كتاب مؤلَّف حتىٰ تُراجع وتُرتَّب ويُتأكَّد من أنَّها متناسقة وليس بينها تنافر، كما يفعل كلُّ المؤلفين.

إذًا فمن تلك النصوص المتفرِّقة ظهر لنا نظام متكامل مترابط، وعندما نتأمَّل في المعاني المعتبرة والفروق بين المسائل المتشابهة، وفي العلاقات بين الأجزاء، نجد الاطراد فيه والاتِّساق الذي يبرز الدقَّة والجمال في هذا التشريع.

ويلزم من ذلك أنَّ لهذا النظام مصدرًا ذا علم عظيم وحكمة بالغة، وهو نظام أعلىٰ من التجربة والتطوير البشري المعتاد في مثل هذه الأمور، فلا يمكن أن يأتي نظام مُتقن بهذا الشكل الذي نجده في الشريعة في مرحلة زمنية متقاربة من تجربة شخص واحد، بل لا بُدَّ أن يأخذ مراحل زمنية طويلة جدًّا، وهو مع ذلك لن يصل لمثل الكمال الذي نجده في الشريعة، كما تشهد التجارب البشرية علىٰ هذا.

إنَّ من المستحيل أن نختزلَ هذا الأمر ونقولَ: إنَّ نصوصًا متناثرة اجتهد فيها إنسان أو حتىٰ مجموعة من البشر شكَّلَتْ مثلَ هذا النظامِ العميقِ المتقَن، فليس هذا مما عُهِدَ عن البشر، ولا يمكن أن يحصل إلا بشيءٍ متعالٍ عن الضعف البشري وعن حاجتهم للوقت الطويل والتجارب والتصحيح المستمر، مع أنَّهم سيظلون محاطين بمحدودية تمنعهم من الوصول إلىٰ الكمال.

وبهذا نكون قد أبرزنا شيئًا من كمال الشريعة المعجِز في باب المعاملات تطبيقيًّا بعد أن تكلَّمنا عنه نظريًّا[1]، وكذلك لو ذهبنا لأبواب الشريعة الأخرىٰ فسنجد هذه الخصائص وهذا الكمال العجيب.

---

(١) وقد تركت كثيرًا من التفاصيل والأمثلة اختصارًا، ويمكن لمن يحبُّ أن يرجع إلى سلسلة: «لقاءات عن تشريع المعاملات المالية في الإسلام - ملامح ومحاسن» على اليوتيوب، وفيها تطبيق لخصائص التشريع ومحاسنه على باب المعاملات بصورة موسَّعة، انظر:

في مجال التشريعات... في مجال الأخلاق... حتىٰ في مجال التصورات... في مجال فهم الإنسان لوجوده: الجمال ظاهرٌ أخَّاذٌ في هذه الشريعة، نجد أمامنا نظامًا عظيمًا، متقَنًا ومحكَمًا، فيه شمول وعمق وتناسق وتكامل، نجد فيه معايير يرجع إليها الإنسان، وفي الوقت نفسه نجد مرونة، ومنهجية وانضباطًا، وواقعية وتوازنًا، ويولِّد هذا النظام الأحكامَ والأخلاقَ علىٰ مدىٰ الأزمان، لا ينضب ولا يتوقف.

في المقابل ما هي المعطيات الموجودة عند الشخص الذي صدر عنه كل هذا «النبي محمد ﷺ»؟

إنَّ وقته محدود، مكث ثلاث عشرة سنة بمكة، وعشر سنين في المدينة، وهو مشغول في الحرب والسِّلْم، وبإدارة شؤون الناس ومشاكل مجتمع أخرجه من شتات الجاهلية إلىٰ نور التوحيد، ورعاية تسع زوجات، ودعوة وتعليم، واحتياجات أصحابه، ووفود تأتيه، وشرور المنافقين... وغير ذلك.

ثُمَّ لا يوجد لدينا مصادر موجودة، لا في زمن النبي ﷺ، ولا في البيئة الجاهلية التي كانت حوله، ولا في غيرها من البيئات مثل: اليونان، والرومان، وغيرها من البيئات الغارقة في الظلام والوثنية والتخلف وحتىٰ بعد الإسلام وإلىٰ يومنا هذا، لا يوجد أي مصدر في الوجود يحوي كل هذه الكمالات ولا حتىٰ يقاربها.

والنبي ﷺ مع هذا كلِّه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وليس لديه تجارب ولا خبرات طويلة، أو قراءات سابقة في الحكم، أو التشريع، أو القضاء، ونحوها، مع أنَّ كل هذا لو وُجِدَ لا يولِّد هذه الكمالات، والتجارب البشرية شاهدٌ لا يكذب.

ثُمَّ إلىٰ يومنا هذا لم يوجد مقارب لهذه التشريعات، وهذه الأخلاق وهذه الكمالات والجماليات التي في الإسلام ولن يكون.

ما هي النتيجة من هذا؟

النتيجة واضحة جدًا، وهي: أن هذا الدِّين هو دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ هذه حقيقة يقينية كبرىٰ لا يمكن أن يخالج مَن عرف وشم رائحة هذا الجمال الشك فيها.

ويحلو لي في هذا الختام أن أسوق عبارة ابن القيم: (والمقصودُ أنَّ خواصَّ الأمَّة ولُبابَها لما شَهِدَت عقولهم حُسْنَ هذا الدِّين وجلالتَه وكماله، وشَهِدَت قُبْحَ ما خالفه ونقصَه ورداءته، خالط الإيمانُ به ومحبتُه بشاشةَ قلوبهم، فلو خُيِّر بين أن يُلْقىٰ في النَّار وبين أن يختار دينًا غيره؛ لاختار أن يُقْذَف في النَّار، ويقطَّع أعضاءً، ولا يختار دينًا غيره.

وهذا الضربُ من النَّاس هم الذين استقرَّت أقدامُهم في الإيمان، وهم أبعدُ النَّاس عن الارتداد عنه، وأحقُّهم بالثَّبات عليه إلىٰ يوم لقاء الله)[1].

وبهذا نصل لختام هذه السلسلة عن جماليات الإسلام، وحقيقةً لا أشعر أنِّي أعطيت الموضوع حقَّه، بل لعلَّ ما فعلتُه هو تحليقاتٌ عُلويةٌ، ومن اقترب أكثر فسيجد أكثر، وهناك أيضًا جماليات لم أُرَكِّزْ عليها مثل: جمالية القرآن، وجمالية السُّنَّة النبويَّة، فهذا موضوع يحتاج إلىٰ إعداد مُتخصِّصٍ ليأخذ حقَّه من التحليق في جمالياته، فنسأل الله أن ييسر من يقوم بذلك ويسخِّر له.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٩١).

معارج الجمال

تحليقات في سماوات الجمال الإسلامي

لكلمة الجمال وقع جميل، فقد فطرت النفوس علىٰ حبّ الجمال، وتعرّف الله تعالىٰ إلىٰ عباده باسم الجميل، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، وكفىٰ بذلك مزيَّةً ومنزلةً للجمال، وقد جُعِلَ باعثًا وحاديًا إليه تبارك وتعالىٰ.

وهذا الكتاب يعرج بنا في مراقي الجمال ومعارجه عبر رحلات متعاقبة يتكامل بمجموعها تصورنا حول مظاهر الجمال في الإسلام، حيث يبتدئه المؤلف بالحديث عن الجمال في الإسلام مبينًا منزلته وأهميته لعصرنا، ثم يتناول بالبحث جمالَ التصورات الكبرىٰ، وجمالَ العلاقة بالله تعالىٰ وما تثمره في نفوسنا، ثم يلي ذلك الكلام عن جمال النبوة وما تضمنه من تقرير العناية الإلهية بالبشر، ثم يطوف بنا حول جماليات الأخلاق والتشريعات.

وقد نظم المؤلف ذلك كله بطريقة جميلة مشوقة آخذةٍ بحبلٍ من التأصيل وآخر من التطبيق.

sales@al-fostat.com مطابع الفسطاط الحديثة

٨٧ آفاق المعرفة AFAQ ALMAAREFA

www.afaqpub.com

مكتبة t.me/soramnqraa

9 786030 507184